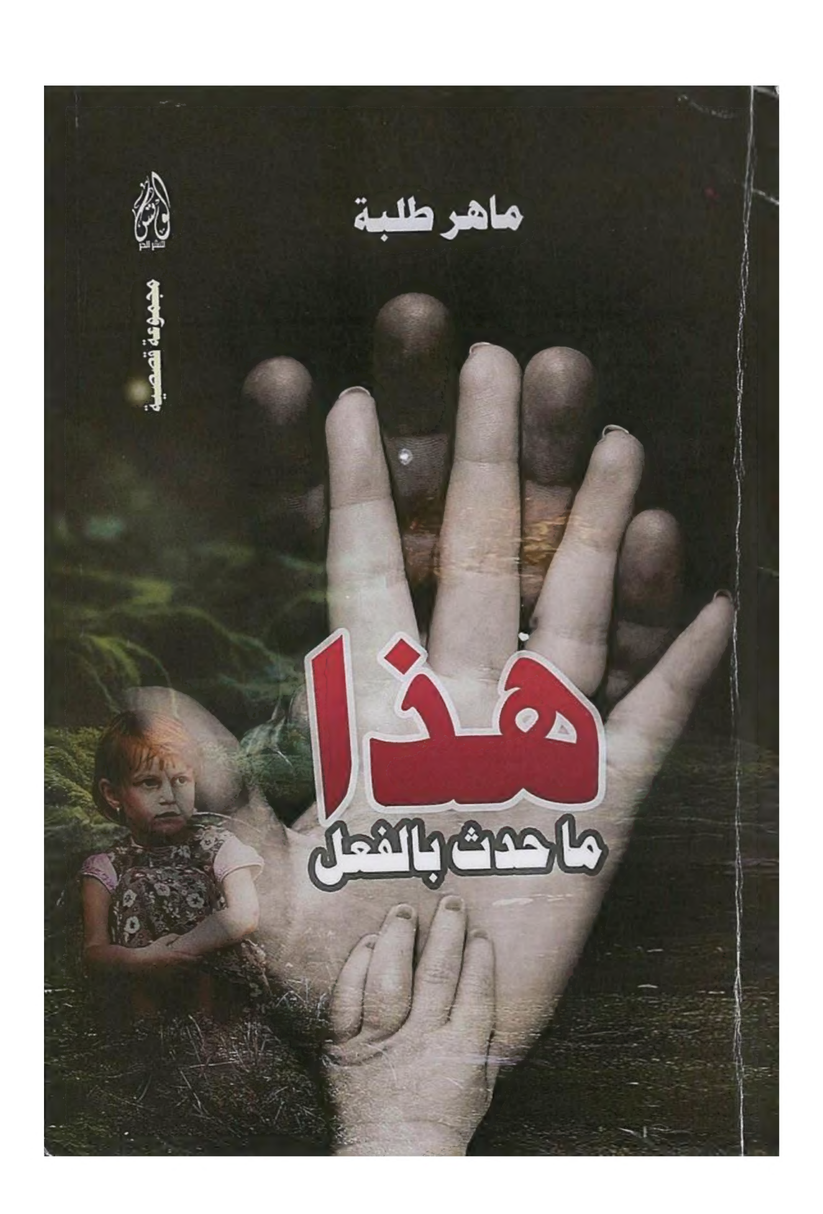

ماهر طلبة
هذا
ما حدث بالفعل
مجموعة قصصية
أوراق للنشر الحر



هذا ما حدث بالفعل

مجموعة قصصية

ماهر طلبة

هذا ما حدث بالفعل

ماهر طلبة

مجموعة قصصية

رقم الإيداع
2019MO4074

الترقيمُ الدولي ISBN
978-9920-796-71-2

مشروع النشر الحر
رقم الإصدار: (٢٣٣)
يونيو ٢٠١٩

الغلاف والإخراج الفني:
دار لوتس للنشر الحر

منشورات دارلوتس للنشر الحر
القاهرة الكبرى:
١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول شارع
فيصل بجوار محطة مترو فيصل
١٨ ميدان المساحة - الدقي
هاتف:
٠١٠٩١٩٨٥٨٠٩ | ٠١١١٦٣٨٩٣٤٧
الإسكندرية:
٦ شارع بن دينار - محرم بك - امبروزو
هاتف: ٠١٠٦٨٦٣٨٣٧٧
المغرب: الدار البيضاء
٢٧٠ زنقة ١٦ - حي البركة - مولاي رشيد
هاتف: ٠٦٦٤٣٩١٢٦١

مشروع النشر الحر
أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

للتواصل مع الدار والمشروع
هاتف / و اتس آب:
+2 01091985809
+2 01116389347
الموقع الإلكتروني:
www.lotusfreepub.com
البريد الإلكتروني
Lotusfreepub@gmail.com
صفحة فيسبوك
www.facebook.com/lotusfreepub



إلى نقطة المطر التي ولدت من البحر، وكان يمكن أن تغيره لولا أنها ذابت في مياهه المالحة وانهزمت فأضاعت الحلم

انتقام .. صورة

لسبب ما علق البطل صورة لحبيبته التي هجرته على الحائط المقابل، ولسبب ما حاول كثيرا أن يصل إلى، أو يتعرف على تاجر أسلحة ليحصل منه على سلاح، ولسبب ما حاول حين تمكن ذات يوم من امتلاك مسدس نصف آلي ذي حركة زناد مزدوجة الحركة الأولى للتعمير والحركة الثانية للإطلاق من نوع «بريتا» عيار٩مم أن يتدرب عليه على يد متخصص في هذا النوع من الأسلحة، ونجح في ذلك دون أن نفهم السبب....

والآن.. أخذ صورة حبيبته من على الحائط، وألبسها في كيس بلاستيك أسود اللون، وضع مسدسه في جرابه وعلقه بكتفه، وارتدى فوقه ما يخفيه، و اتجه بها إلى عمق الصحراء..

وهناك.. علقها على صليب خشبي في وضع مسيحي خالص، ثم حفر تحتها قبرها، ورجاها أن تعترف أمامه بكل ما ارتكبته من خيانات لتتخلص من خطاياها وتبرأ... لكنها ظلت صامتة راسمة نفس النظرة البلهاء التي دائما ما ترتسم على وجه صورة متهمة بالخيانة، فرجع بظهره مسافة كافية كي لا تطاله خيوط الدم -المندفعة منها- حين تنطلق الرصاصات، ثم اطلقها كلها، لم يحتفظ لزمنه القادم بأي رصاصة، انقلبت بصليبها في قبرها.. أهال الرمال عليها، أخفي بقايا الدم المتناثرة حول قبرها بالرمال.. ثم أعاد مسدسه الفارغ إلى مكمنه، وعاد إلى حائطه منتصرا.

إنذار حريق

رنين الهاتف أيقظَه، حرّكَ سماعة أذنِه لالتقاط صوتِها البعيد، كانت تحدِّثه مِن منطقة بعيدة في قلبه، أنصتَ صامتًا بعد أن تحكّمتْ في لسانه، فلم يعُد يستطيع النطق أمام حبال كلماتِها التي كبّلَته والتي يبدو أنها قد أعدّتها وجهّزتها لِتُلِمّ بها جريمتها التي تحدث الآن.. هذا لا يمنع مِن أن عقله كان يعمل بمنتهى السرعة لينقِذ نفسه مِن ورطته تلك وحصارِه هذا، لذلك فقدْ أسرع في محاولة يَائسة لمنع إتمام الجريمة بإغلاق باب قلبه الداخلي – لمنع خروجها- بمفتاح حبِّه، ثم شَد الباب الحديدي الخارجي – لقلبها- والذي كان قد اشتراه ودَفع تكاليف تركيبه في مكانه بعد ملاحظته أن بعض العيون تتلصص عليها وتحاول التسلل إليه في الفترات الطويلة التي كان يضطر بسبب كلماتِها الحارقة الحادة إلى الابتعاد عنه تاركَه لها وحدَها..

الآن.. تقول له.. إنها لن تستطيع البقاء.. صَمَتَ.. إنها قد فتحت الأبواب في غيابه.. أطرق برأسه.. إن هناك مَن دخل دون أن.. أدري أو أنتبِه.. و إنه أدار قلبها في اتجاه آخر مما جعل قلبها يفقِد إشارات قلبه، فلم تعُد تتلقى كلماتِه ولمساته على قناة الحُب التي كانا يلتقيان عليها مِن قبل ويشاهدان حياتهما مِن خلالها.. فرّت الدمعة الأولى منه.. ثم تركت سماعة أذنِه مفتوحة في العراء لتصل إلى سمْعه ضوضاءُ عالية مصحوبة بصافرة طويلة حادة كأنها إنذار بأن شيئًا ما يشتعل، لم يكن أمامَه الكثير من الوقت ليفكر في فِعل ما يجب لإنقاذ الموقف ومنْع امتداد الحريق، لكن في محاولة منه لإطفاء النيران المشتعلة داخله و إيقاف هذه الصافرة الممتدة والتي تمزق طبلة أذنِه الداخلية.. ألقى بنفسه المشتعلة في نهر الدموع الذي كان يتجمّع تحت قدميه واستسلم تمامًا لمياهِه الراكدة وأسماكِه الحية / ذكرياته التي كانت -مثلَه- تشكو الجوع!

يوم المرأة العالمي

يراودني هذه الأيام حلم غريب، يدور في معظمه عن وأد البنات، ربما يرجع هذا إلى أنني حلمت ذات ليلة أنني ولدت أنثى، وأن أبى لم يرحب بى، و أنه طلب من أمي – والتي و للمصادفة كانت في حلمي الذي يتكرر تظهر دائما في صورة رجل – أن تجهزني للأمر، وهى فهمت، وهزت الرأس، وبدأت خطوات تجهيزي كقربان.. «ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى».. و أنا أيضا فهمت فحاولت قدر استطاعتي أن أهرب من حلمي، فوجدت نفسى في نهاية محاولتى في حلم آخر كنت فيه في قلب الحفرة.. داخل مدفن، مربوط إلى حجر أسود يشل حركتي، أحاول أن أوصل إليهم صوتي – الذي لم يكن قد تكون بعد – لأفهمهم أنى خلقت هكذا لكننى لم يكن لي اختيار، لكن أبى يضع على كتف أمي – التي في صورة رجل- عباءته ويبدأ في ملء الحفرة بالتراب.. وقتها استعدت جزء من وعى وقلت لنفسى «بما أنني في حلم، فلن أموت، ولن يأتي إليّ ملك الموت، ولن أحاسب، ولن أعذب في قبري، ولن أذهب – كما يفترض بالأنثى دائما – إلى الجحيم.. لكن استمرار تدفق التراب، والظلام الدامس الذي يتكون داخل الحفرة وداخلي، والهواء الذي ينفذ جاعلا من كل شهيق عذاب قبر جعل الشك يتسرب إلى نفسى والخوف يطاردها، فقررت أن انتقل من حلمي إلى و اقعي لعلى استيقظ..

كان أبى و اقفا حزينا مهزوما ينظر إلى طفلته المولودة حديثا في ملابسها البالية، بينما أمي تحمل عارها ساكنة في انتظار العقاب.

السيدة

سيدة تعشق الحكايات، ترتاد مقاهي المشردين والتائهين في صحراء الدنيا، تجمع ما تناثر من رو اياتهم وتحاول قدر استطاعتها هدايتهم إلى خيام المضيفين.. حيث الغذاء والدفء والسمر الليلى والحكايات.. سيدة ليست هي التلميذة التي تسند كتبها إلى صدرها لتحميه من نظرات المفترسين المشتهين، ولا هي المرأة التي حين تظلم عليها الدنيا مساءً تكون سريراً لرجل واحد أبداً لا يتغير.. سيدة تفكر دائما في المشردين والتائهين في الصحراء.. منذ تخلفت عن الركب ذات مرة، وصارت وحيدة تشارك ذرات الرمال ضياع الصحراء وعطشها.. يومها، مر فارسها، ركب خلفها أو أركبها أمامه، وأوصلها لشط الأمان، يومها ذهبت سيدة إلى خيمة أبيها.. نَشَرت في الأفق حكايات عنه.. هو النقي، التقى، الورع.. هو الصديق، هو الوفي، هو الكريم، هو الشجاع، هو زير النساء، هو الخصى...

تحاول سيدة أن ترسم المتشابه في المختلف، أن توحد بين ذاته وبين حلمها، لكنها تخفى خلف رؤيتها نظرات تطاردها وتطارده، لمزات تحاصره وتحاصرها.. سيدة تكره النظرات، تفهم اللمزات، لذلك استترت في ليلها بالرجال وفى نهارها بالنقاب.

سيدة ليست امرأة عادية، ليقول عنها التاريخ إنها كانت هنا ورحلت، فآثار سيدة وبصماتها فوق جسد كل رجل مرت من أمامه ، رمت عيونها تجاهه، تركت كلمة أو صوتا أو لونا أو طَعما من فمها على شفاهه، لذلك فتح لها التاريخ صفحة أبدا لا تنغلق.. ليست هذه هي حكايتها الوحيدة ، هي فقط ما استطاع التاريخ أن يضع إصبعه عليه من

حكاياتها، لكن لسيدة قصة في الطفولة قبل أن تغادر دار أبيها وتغادرها، تذكر أنها كانت معها عروستها، تُجلسها على حجرها تهدهدها كطفلها الذي لن تلده أبدا، تُسمعها حكاية من حكايات الرمل .. الدمع الذي يسقط لوأد النساء، فيجمع في البئر ليشربه ناس القبيلة والعابرون، وحوش الصحراء وطيورها.. كانت عروسة سيدة حزينة، لكن ليست مثل سيدة، أتت يومها أمها، أخذتها من يدها، ألبستها ما خلعه عنها آخر لتصير عروسة.. سيدة تترك للتاريخ صفحة مهمة لا تنسى ولا تنغلق – منذ ذلك اليوم- هي مثل الدمع يسقط من العين، تتلقفه الأرض – الحزينة – تتشربه ، فيخرج نبت أخضر لتأكله بهائم الأرض دون أن تشعر أن هنا دمعاً وألماً..

حدث ظهرا

الشمس كانت حارقة، الجو خانق، الأتوبيس مزدحم، وهي كانت و اقفة تنز ماء من مسام جلدها، حين وفجأة وقف خلفها هو، حاله كان كحالها تماما، الماء ينز منه ويندفع.. رغم الزحام لم يحاول أن يلتصق بها رغم الشيطان الذي يوسوس له، ورغم انتظارها الذي كان يبدو واضحا من تأهبها لرد الصاع صاعين.. ربما تكون رائحة العرق هي ما منعه، وربما تكون «الخنقة» المحيطة بالجميع والتي لم يكن واحدا منهما في حاجة لزيادتها.. لكن هذا لم يمنعه أو يحرمه من أن يلاحظ قطرات العرق التي تندفع من فروة رأسها سالكة طريقا عبر عمودها الفقري تاركة بصماتها على بلوزتها الصفراء، حتى وصلت إلى بنطالها الأسود وهناك اختفت في الشقوق والأحافير، فتوقف ولم يترك لخياله مجالا لتتبع باقي الطريق، لكنه لاحظ أن ما يشبه سرسوبًا من المياه يندفع عبر عموده الفقري هو الآخر، و أنه وصل بسرعة إلى قدمه وغادرها إلى أرضية الأتوبيس.. فتنبأ بأن ماءها هو الآخر يتبع نفس المسار، و أنه الآن ربما يكون مفارقا لها، ملتصقا بأرض الأتوبيس، فانحنى برأسه سامحا لجسمه بخلق المسافة الكافية كي يرى أرضية الأتوبيس، فابتعدت -هي- بحركة مفاجئة بوسطها للخلف، خالقة دائرة من الفراغ تشبه بطن الحامل، عندها اندفع ماؤه مسرعا في اتجاه مائها.

فستان وبدلة

كانا يشغلان واجهة المحل.. هو بلونه الأبيض الناصع وهي بسوادها الحالك كنقيضين مجتمعين في قفص واحد لا انفصام بينهما.. تعارفا وتحابا بفعل الزمن والسكون المحيط والوحدة الحارقة.. تعرف كل منهما دوره في الحياة وأحبه.

قال: سوف تلتهمني العيون يوما، كما تفعل كلما وقفت أمام مشهدي هذا.

قالت: سوف تُسبَل الرموش يوما، كما تفعل كلما وقفت أمام مشهدي هذا.

قال: إنه سينتابه الخجل فيطرق رأسه إلى الأرض كتفاحة قد آن قطفها.. يجعلها تسقط وينتظر أن تأتي الحركة الأولى منه.

قالت: إنها ستأخذ المبادرة ولن تترك الفرصة تضيع.. ستقترب.. تقترب حتى يلتصقان.. ستجن تبعثر الأشياء وتبحث.. في قمة نشوتها وسعادتها قد تندفع فتمزقه لتصل إلى حقيقة الأشياء وتبدو أمامها عارية.

خجل انتابه كأنه في حضرة ما وصفته يراه رؤية عين.. يمسك لحظته فأطرق كتفاحة في حاجة لمن يقطفها.. هبطت أكمامه إلى الأرض لاتسعها فسرت في جسده برودة المكان فارتعش.. أحست هي بما انتابه فانتفخت بفعل الزهو والهواء.. تمددت باتساعه.. انكمش.. وضعت كمها على كمه المرتعش ونسيت أنها بدلة ونسى أنه فستان...

سندريلا والبؤس

قتلها البؤس، الحزن ضرب بابها، الفقر أكل كل ما فيها حتى ثيابها، خرجت من بيتها تدُور على بيوت القرية لعل هناك من يمد اليد.
الأمير يسكن دائما على أطراف القرية، يجرى دائما بحصانه في الحقول، يسبقه كلبه مرة، ويسبقه بحصانه مرة..
الآن هو يجاور سندريلا، يستوقفه حزنها، بؤسها، ثيابها المتآكلة.. يتوقف كلبه عن السباق، ويساير خطوات سندريلا.. الأمير يخرج من دهشته بسؤال..
- من أنت؟!.. لم أقابلك من قبل في حواديتي؟!..
سندريلا لا تجيب.. فقط تضع يدها على الجزء المتآكل والذي ينفلت منه ثديها.. الأمير تتملكه دهشته، فلا ينظر إليها كأنثى لهذا لا يتوقف طويلا أمام الثدي المتدلي، العين الكسيرة، الشفاه المرتعشة بردا وجوعا..
- من أنت؟!..
يسابق السؤال الجواب، كسباق الكلب الحصان.. الأمير لا يطيب له السير الهوينا.. الأمير أمير لأنه يسابق الريح، لأن حصانه يسابق كلبه.. لهذا يتخطى بسرعة دهشته، سؤاله المعلق بلا جواب ويسرع الخطى في اتجاه أطراف القرية حيث القصر الذي لا يرى ساكنه سوى حدائقه الغنَاء..
الأمير في القصر يسترجع يومه كما اعتاد، يستوقفه مشهد الحقل، الفتاة ذات الثياب، الآن فقط وهو في جلسته تلك والأشجار ترمى ظلها على حجرته، والأزهار تقذف ناحيته رو ائح الياسمين والفل والنرجس والاف الأسماء، يتخطى ذهنه كل هذا ليصطدم بعريها، بالثدى المتمرد

على الثوب الممزق، الأمير يعرف طعم لحم الفقراء..

«من أين أتت؟!»..

«لم أرها في الجوار من قبل»..

الأمير يحسم أمره.. «الصباح رباح» ..

يا حاجب هذا القصر، غدا الحفل الكبير.. اذبح وادعُ كل من يحيط بالقصر للحضور.

في عقل الأمير فكرة، في رأس الأمير خيال، صورة لثدي متدل ... غدا حفل كبير.

***

الأمير يرتدى ثياب الحفلات، وجه الحفلات، روح الحفلات، يتقمص شخصية السعيد لأن أهل اقطاعيته يجاورنه.. يفتح باب حجرته ويهتف

- هل حضر الجميع؟.

الجواب..

- نعم..

يرسل الأمير خياله ليحلق في أجواء القصر.. سيجدها بالتأكيد في زاوية، تجلس على الأرض، تلم الثدي الهارب من حصار الثوب المتآكل إلى الفضاء، كطائر أبدا لا يستكين إلى القفص، الأمير يعرف خجل الفقراء من العرى، يثيره مشهد جسد لا يجد الثوب الذي يحتويه، لا يعرف متى استطاب لحم الفقراء، لكنه يعترف أنه لم يجد متعة ما عندما تذوق لحم الأميرات، أن كل لحظات حياته السعيدة في هذا الجانب قضاها في لحم فقيرة، الأمير يخرج من ذكرياته على دعوة للنزول .. الأمير يتهيأ، الأمير يتحرك.. القصر يسكن في انتظار حركة الأمير.

***

الأمير يدور في جنابات القصر .. الحديقة.. يفتش في الوجوه.. هو لا

يرحب، فقط يدع يده تصطدم بالشفاه فهذا غاية المراد بالنسبة لهم، ومصدر السعادة بالنسبة له.. أن يلمسوا.. أن يقبلوا.. حجر أسود هو بالنسبة لهم.. يعبر الوجوه سريعا.. «في رأس الأمير خيال».. تشابه عليه الأمر... «في عقل الأمير فكرة».. هو يستعيد الآن صورة الخيال.. الثدي المتدلي، الفقر الذي يعرف طعمه في العيون، لونه في الشفاه، وبؤسه في الثياب والقلوب.. الأمير يمني النفس بلهلته تلك.. «ستكون جزيرتي التي ألقى عليها مرساتي اليوم، أنا البحار العابر لبحار الفقر على الأجساد الفقيرة».. الأمير يقلقه أنه حتى الآن لم تصطدم عيناه بها، لم تخطف يده قبلاتها.. الحلم يتأخر، والأمير-الذي لم يعتد الصبر حين يمر الخاطر بالبال- ينتابه القلق.. تتسرب إلى نفسه لحظات ألم.. الأمير لا يستطيب الحياة بهذه المشاعر، لذلك يسارع بعبور الوجوه، لكن الوجوه تتكرر..

«هل تشابه عليه الأمر؟!» ..

«هل مر عليها ولم ينتبه؟!»..

يشير إلى خدم القصر.. تقترب العيون والآذان..

- أين باقي سكان القرية؟!.. اخرجوا.. دوروا في الجنبات.. ابحثوا.. ليست هذه هي الوجوه.. ليست هذه هي الهدف..

- الأمارة يا أمير.. دليل العثور عليها..

الأمير يفكر.. «في رأس الأمير خيال».. هو يستعيده الآن، الثدي المتدلي، الشفاه المرتعشة.. يعمل خيال الأمير بهمة ونشاط.. يشير على بطانته.

«لا أذكر سوى الثوب المتآكل، والثدي المتدلي..»

يأتي رسام القصر، يدخل رأس الأمير بألوانه وينقل خيال الأمير إلى الورق.

- وزعها على كل من في القصر..

- من رأى هذه الثياب، من رأى هذا الثدي ليتقدم للأمير..

الوجوه تحار، لم نر هذا الثوب، هذا البؤس.. رغم تشابهه مع بؤس العيون والوجوه والقلوب لأغلب سكان القرية.. الأمير يحار.. يهرب من حفله، يسارع إلى الحقل حيث الخيال.. هناك لمحها شجرة في أرض، ترمى أوراقها حول جذعها لتخفى الثدي.. ذهل الأمير..

- لماذا لم تأتِ الحفل؟

أشارت إلى ثيابها..

«ما له الثوب؟!!.. هو مبتغاى»..

استدعى الأمير ساحرته العجوز من حدودته.. أمرها أن تقنع سندريلا بالحضور، تعدها بالهناء والسرور... لم تلبسها فستانا جديدا، لم تضع في قدميها حذاء ذهبيا، فالأمير يشتهى ثوب البؤس بقدر اشتهائه لحمها، فقط أسمعتها معسول الكلام.. سندريلا مسلوبة العقل ذهبت إلى الحفل.. زادت الأضواء.. زادت البهجة.. انتشى الأمير.. غلبه فرحه فنام.. عندها بدت سندريلا في صورته حزينة، شجرة دون أوراق.

سندريلا الزمن الأخير

انتبه الأمير الفحل من نومه.. تقلب في سريره الحريري، لفت انتباهه أن الجهة الأخرى من السرير فارغة.. سأل نفسه.. «تُراها أين ذهبت؟!».. مد يده يتحسس مكانها.. كان الدفء وبقايا لقاء الأمس تشعل المكان، واصل رحلة البحث بيده.. تحت «المخدة» وجده.. كان قد تعمد أمس حين تخلصت من القطعة الأخيرة من ملابسها أن يدسها بيده تحت «المخده».. اطمأن قلبه بعض الشيء، فلا يمكن أن تكون قد ذهبت دون هذا.. ربما هي الآن في مكان ما في القصر، تفتش حجراته، تلهو عبر ممراته، تتريض في حدائقه.. عاد إلى جسده الكسل الجميل، تسللت إلى أنفه رائحة الأمس.. عطرها الفواح، الماء المتدفق من مجاهل التاريخ يحمل ذكرى «كن» الأولى والكون الأول.. انتعش داخله بأمل تكرار ما حدث ليلا.. الحياة التي نبضت فجأة.. تقلب فانزاح الغطاء عنه.. ظهر عريه.. قطعة لحم بلا ملامح أو تفاصيل.. عاهة كل أمير.. غادر الفراش متكاسلا وهو يهتف باسمها «المجهول».. الصمت يرمي غطاءه على المكان، يقهر ضوء الشمس الواصل إليه عبر نافذة الحجرة، يتسلل كأنه ثعبان يقرص الأمل النابض في القلب، الرغبة المتدفقة في العثور عليها.. تأكد مما في يده.. «لابد من أن تكون هنا..».. «كيف تنصرف دونه؟!».. تحرك مبتعدا عن سريره.. نظر صورته في المرآة.. لعن في سره عاهة كل أمير.. فتح باب الحجرة وتحرك خارجها.. لا صوت ينبئ بوجود حياة في هذا القصر الذي كان ينتشر الموت في حجراته وممراته وحدائقه حتى مساء الأمس حين طارده صوتها الجميل حتى في بوحها بلحظات الألم اللذيذ.. كان سيجن.. لم يكن يعلم أن الحياة يمكن أن تتفجر هكذا

من خلال الجسد البشرى، أن كل هذه الضوضاء توجد بين العظام واللحم.. «أين ذهبت؟!».. تأكد مما في يده.. لم يخدعه الحلم.. له ملمس جسدها.. رائحته رائحتها.. فتح باب الحجرة الأخيرة في القصر.. رمى اليأس عليه ثوبه.. غادرته حتى الرائحة..

فتح الباب وهتف باسم البواب.. سأله..

- متى غادرت؟..

- هل تركت له رسالة؟..

- هل قالت أنها ستعود ومتى؟..

لم ترحه إجابة البواب.. لم ير خارجا أو داخلا منذ جلس، لم يُفتح الباب منذ دخل هو أمس، لم يطرق الباب رائح أو غاد.. الموت مازال يفترش المكان.. تركه وأغلق الباب.. تأمل ما في يده من جديد.. الملمس والرائحة.. هي كائن حي، ليس حلم ليل.. ليحسم الأمر ارتدى ملابسه، وضعه في جيبه الداخلي.. تأكد مرة أخرى من الملمس والرائحة، سيعيد رحلة الأمس من بدايتها.. سيزوركل مكان وصل إليه أمس، يتشمم كل الروائح لعله يهتدى، سيرفع عن كل من يقابلهن الثياب حتى يتأكد أن هذا ليس لها، وأن هذه ليست هي.. لن يدعها تفر هذه المرة، لن يدع الضوضاء والصرخات المبحوحة تغادره هو أوقصره.. شد الباب خلفه في عزم، انغلق الباب محدثا صوتا مفزعا.. انتبه.. انتبه الأمير الفحل من نومه.

وبعد..

وكان.. أن الرجل الطيب دخل بيته ليلا، نظر إلى الوحدة الملقاة أمامه على الأرض نائمة، نظف حولها ثم أتى من داخل حجرة نومه الباردة بغطائه الأثير، وألقى به عليها.. فتح التلفاز المغلق بالتراب، وسجل اسمه بين ذرات الغبار وهو يحاول مسحه بيده، ثم جلس على كنبته الوحيدة وحاول أن يلثم الكون، لكن إضاءة الشاشة على حادث تفجير انتحاري لنفسه وسط الحشود المسالمة، أخاف الكون فأسرع هاربا.. ترك الريموت فوق الطاولة الوحيدة في الغرفة وأسرع إلى مطبخه، فرحت الثلاجة حين لمحته داخلا ، مد يده وسلم ففتحت له طريقا ليدخلها، ضربته برودتها في وجه، لكنها أنارت وجهها له.. مد يده وأخرج من داخلها طعاما يصلح ليكون زادا لبقائه يوما آخر، ثم أغلقها - فانطفأ نورها حزنا- و انصرف إلى الكنبة.. كانت الجثث التي تركها داخل شاشته تفر من هول الانفجار إلى داخل صالته، ناشرة حالة من الفوضى تشبه حالتها داخل الشاشة، هاله كمية اللحم الممزق الذي عبر من الشاشة فملأ صالته، أسرع بوضع الطعام فوق الطاولة، ومد يده لينظف كل هذه الفوضى بأن نقل نفسه إلى قناة أخرى، كان الحزن بداخلها أقل برودة فجلس على كنبته يشاهد صامتا.

الذبيحة

صحوت من النوم اليوم حزينا جدا؛ فقد حلمت أن أحدهم قد أكل حمامتي البيضاء.. هذه ليست نكتة.. فأنا أقتني بالفعل حمامة بيضاء، أترك لها عادة «الحبل على الغارب» كما يقال لكي تذهب أينما تشاء وقتما تشاء في فضاء الله الواسع، تطير كثيرا، وتبتعد كثيرا لكنها دائما ما تعود لعشها من جديد تهدل في بلكونتي أناشيد الهوى للذكر الذي تهوى، وترقد في سلام تحت ظل حمايتي..

في حلمي، قص أحدهم عليّ ما حدث.. كيف استغل الذابح براءتها.. اقترب دون أن يثير في قلبها القلق، داعبها في حنو أبوي.. حتى اعتقدت أنه مثلنا، فقط يهوى البراءة المرسومة على ريشها... ثم تمكن من رقبتها.. جرها من ريش رأسها على الأرض وذهب بها.. الباقي وصل إليّ صورا متفرقة، ومشاهد قصيرة لفيديوهات عن عملية الذبح.. تساقطت بين يدي واحدة بعد الأخرى أثر مقابلات مع أفراد أعرف بعضهم.. جيران وأصدقاء، وآخرون محض خيالات ظل لم أتحقق من أشخاصهم أبدا في حلمي. وأخيرا بعض الدماء التي اضطرَّ لمسحها بعد أن أتم الذبح.. قال أحدهم إنه نبهه أن هذه حمامتي، لكنه لم يلتفت له، ولم يعرني أنا اهتماما... يبدو أن جوعه كان شديدا، ويبدو أيضا أنه كان يفتقد لحم الحمام الذي يحب طعمه في فمه.. أحاول أن أتناسى الصور الكثيرة التي وصلت إليّ منذ رفعت رأسي عن مخدتي وخرجت إلى كابوسي.

الآن.. أستعيد صور الذبح – التي تتكرر في أحلامي- كلما نظرت إلى عشها الفارغ من هديلها بعد أن اختفت منذ زمن بعيد.

الجريمة الكاملة

«كلانا مظهرٌللناس بغضاً / وكل عند صاحبه مكين»*.

في ليل مثل هذا الليل خرجت ليلى من خيمتها، كانت ترتدى النقاب، لكن قيسا -الذي يراقب الخيمة كل ليل- عرفها رغم نقابها.. انتظرحتى مرت من أمامه وعبرته، ثم تابعها بنظره حتى اختفت، وأسرع خلفها..

سأله المحقق: لما أسرعت خلفها؟!.

قال قيس: لأعلم..

***

استمرقيس في تتبع خطوات ليلى التي تتركها على رمال الصحراء، كانت تبتعد عن خيامهم.. ربما لم يلاحظها القمرلذلك لم يتبعها، لكن قيسا سارعلى خطوها.. كان شكه كما يبدو في محله.. فليلى تقترب بالخطوات من خيمة بن ورد..

سأله المحقق: من أين لك بخطوات ليلى حتى تدعى أن هذه الآثارلها..؟!.

قال قيس: أعرفها.

***

على باب الخيمة فقدت خطوات ليلى انتظامها، ربما لأنها في لحظة اللقاء بابن ورد لم تصل لصدره لتلقى عليه ثقل الجسد فخرجت مشاعرها المضطربة عبرالخطوات.. قيس تفحص الأثر، ثم نظر إلى القمر الغافل عنها.. كان كل ما يريده شاهدا.. لعل العالم من بعده يعرف سرهما.

سأله المحقق: كيف...؟!.

قال قيس: بالكلمات..

***

اقترب من الخيمة، كان الصمت يلف الصحراء، كأنه متواطئ، مشارك في جريمة لا يعرف بها إلا قيس.. قطع الصمت فجأة ضحكة تعالت حتى أنها دهنت صمت الصحراء بالبهجة، رمل الصحراء بالأخضر، فلفتت نظر القمر الغافل فالتفت ناحيتها، ضوؤه المرمى على خيمة بن ورد عكس ظلين متقابلين عاريين كانا على وشك أن يبوح أحدهما بسره للآخر.. رأى قيس الضوء ولمح من خلاله الشبحين.. وتنبأ بالسر الذي سوف يباح به.. لكنه لم يتحرك.. كأنه أصيب بالشلل.. فترك نفسه ليسقط على الرمال و انتظر..

سأله المحقق: ماذا كنت تنتظر؟!.

قال قيس: معجزة..

***

تحركت الظلال المتقابلة.. لم يعودا ظلين.. فقد اجتمعت معهما شياطين الجن والإنس.. امتلأت الخيمة بالحركة... بالرياح العاصفة.. الأنات التي تشبه صوت ريح الصحراء.. بالأنفاس اللاهبة الحارقة... وصل صهدها إلى وجه قيس.. فأخفى عينيه بيده وحاول ألا يستعيد المشهد مرة أخرى.. لكنه في داخله كان يريد أن يتأكد من شيء واحد.. أن ما سيفعله سيحنطه التاريخ.. فرفع وجهه إلى القمر.. كان القمر غارقا في بحر الاشتهاء والتمني، تتقاذفه أمواج الرغبة الجامحة؛ فبدا بوجهه الأحمر كأنه يشتعل... حزن قيس وتمنى في داخله اختفاء الشاهد؛ لعله يمحو من داخله صورة – سيحفظها التاريخ - ليلى العارية المنعكسة ظلالا على جدران الخيمة..

كان المحقق ينتظر..

وكان قيس صامتا..

***

لم يجد قيس بدا من التحرك، فالشاهد لم يعد شاهد عدل.. ربما

أغوته هو الآخر شفتا ليلى.. تحرك في اتجاه الباب مقاوما ذلك الإحساس الذي يحاول أن يهزمه.. «إنها ليلى.. الحب والحياة.. الشعر والكلمات.. السعادة المقتنصة والفرصة الضائعة «... على الباب توقف ليتأكد أن القمر مازال حاضرا.. أن الضوء المتسلل للخيمة ليس وهما من خياله.. آن الأصوات مازالت تتوالد وتتكاثر في داخلها.. آنه حي لم يقتله بعد ما شاهده سرسوسا على سنسنة الكون،على قماش الخيمة.. اندفع داخلا.. الرمل حجز قدميه لحظات كانت كافية كي يرى المشهد ملء العين.. يتأمله وينقله لعقله الغافل الساهي المغيب.. غيره كان سيصاب بالجنون، لكنه في لحظتها تواردت على رأسه أبيات الشعر وموسيقاه تعزف ألحانا تصلح لأبيات تسكنها الخيانة.. لم يكن يملك الورقة والقلم.. ولم يكن عنده الوقت ليكتب كما اعتاد دائما على رمال الصحراء.. فهجم على ليلى.. أخرج الفزع بن ورد عن حاله.. فأسرع بجلده هاربا.. كان قيس يحاول أن يعبر القصيدة التي تطارده الآن..
«عرضت على قلبي العزاء فقال لي / من الآن فايئس لا أعزك من صبر»[١]..

كان يحاول أن يحولها لو اقع، فيضغط بقبضته التي تنطق الحروف على رقبة ليلى.. فتخرج الأنفاس منها بحار شعر وقوافي تكمل له قصيدته.. حتى وصل بيته الأخير..
«إذا بان من تهوى وأصبح نائيا / فلا شيء أجدى من حلولك في القبر»[٢]..
الأنفاس تتلاحق وتتوقف.. يسابق ليلى وتسابقه... توقفت الحركة.. انكفأ بجانبها.. لم يتح للقمر أن يرى وجه ليلى، ولا أن يلمح ظلها لأنه كان منشغلا بهذا الفار عاريا كأنه خارج لتوه من رحم أمه.. مغطى بفضلات الميلاد.

١- البيت لليلى.
٢- البيتين لقيس.

صديقي وحديث النمل

يوما ما حدثني صديقي عن النمل..
قال: إن النمل هو أعجب ما خلق الله وأجمل ما خلق الله..
قلت له: كيف تقول ذلك وقد خلق الله الأنثى...
قال: أتعرف أن النمل من أقدم الكائنات على الأرض و أنه قد عاصر الديناصورات، ولم يندثر مثل غيره من الكائنات التي لم تتحمل ثقل الزمن... انظر إليه في حركته وتعاونه.. سوف أحكى لك قصة.... كانت لي صديقة منذ زمن طويل وكنت أنا وهى في علاقة حميمة، وقد غابت كثيرا، لكنها فجأة حدثتني، وقد ذكرتني مكالمتها بأيامنا الماضية، فأردت أن أعود بها إليها.. فطلبت منها قبلة كمقدمة للقاء، فرفضت.. أتصدق أن النملة الواحدة تستطيع أن تحمل أضعاف وزنها وتسير بهذا الثقل مسافة قد لا يتخيلها عقلك... أحكى لك... يقال إن صديقتي هذه في زمن الفراق الأول.. تعرفت على صديق لها -صار زوجا فيما بعد- عاشت معه -كما تدعى هي- أجمل أيام حياتها... أتذكر.. أني كنت دائما ما أسمعها -قبل أن نفترق- تردد على مسامعي هذه الكلمات... «الآن أعيش أجمل لحظات حياتي».... أتصدق..
أن النمل يستطيع أن يقاتل أنواعا من الحشرات أضخم منه عشرات المرات ويهزمها دفاعا عن عشه... سأحكى لك... في زمن فراقنا الأول، في أيام فراقنا الأولى.. لمحتها مرة في مكان كنا نرتاده أنا وهى.. كانت في نفس الموضع تقريبا لكن كان معها هو -صار زوجا فيما بعد-.. لا أظن -على الأقل في داخلي- أنهم كانوا يفعلون ما كنت أفعله أنا وهى في نفس المكان.. لم أحاول أن أقترب، لم أحاول أن أظهر أمامهما.. فقط جلست مكاني صامتا حتى انتهى وحتى انتهت و انصرفا.. عندها ذهبت إلى هناك أفتش في بقايا المكان عن رائحتها... هل تعرف..

أن النمل يتحدث بلغة هي أقرب إلى الرائحة.. فالنمل يترك رائحته في المكان رسالة إلى القادم من بعده.. حتى الملكة تتزاوج بالرائحة، فهى تنشر رائحتها حتى يستدل عليها الذكر فيقوم بعمله.....

هل شممت يوما رائحة النمل؟..

هل تفهّمْت أو حاولت أن تفهم رسائله؟..

سأحكى... يومها جلست، لم تكن في داخلي مشاعر أو أحاسيس.. فقط فراغ.. تسربت إليه الرائحة.. أسرتني في مكاني فظللت أسيرها ما بقى من عمري... هل تعرف.. أن النمل يأسر بعضه بعضا وأن بعض الكائنات تعيش في مستعمرات النمل أسيرة لكنها لا تقتله ولا يقتلها.. فقط يستنزفها أو قد تستنزفه..... ألم تسمع أني يوم زفافها -عليه- ذهبت إلى بيتها.. وقفت على العتبات أستمع إلى الأصوات المنبعثة من داخلها وللحاضرين.. تبعتها حتى منزل الزوجية، لم أدخله.. فقط وقفت أسفل البيت.. انصرف الجميع وبقيت أنا.. لعلى كنت أقتفى أثر الرائحة، كنت أتابع رحلة البحث عن المصدر لعلى أهتدى...

تسألنى هل صحيح تموت النملة حين تقرص؟...

نعم... فالنملة لا تقرص إلا حين تحس أنها قد حوصرت تماما.. انكشفت أمام من تتصور أنهم أعداؤها ولم يعد لها أملا في النجاة.. عندها تضع آخر نقطة سم عبر شفاهها في جسد الضحية لعلها تنجو، لكن قرصتها تعنى موتها..

يومها.. أطفأتْ أنوارها و أنواري.. ظللت و اقفا -أرقب النافذة- إلى أن أذن المؤذن.. عندها سألت نفسى.. «هل أذهب لألبى النداء أم أتبع شارة القبيلة.. أنتظر الرائحة؟»... أصدقك القول.. كان هذا يدور في عقلي لكنه ما كان يستطيع أن يحرك قدمى قيد أنملة -كأن سمها قد شلني- فأنا كنت أنتظر شيئا آخر غير كل ما قلته....

نسيت أن أقول لك.. إن النمل مجتمع من الإناث.. ملكة.. شغالات.. جنود... لا يدخله الذكر إلا ليقتل.

حديث عشق

يا عائشة تعالى لأحكى لك حلمي...

كنت أنا وهى في الصحراء، للرمل صوت غير صوت المدينة، وللهواء هناك طعم الجفاف.. كنت على فرسى أغزل من رمل الصحراء طريقا، وأروى الهواء بنغمات صوتي، وكانت هي تفترش الأرض في زيها البدوي الجميل، تخفى جسدها عن رمال الصحراء الراغبة في التسلل لجسدها البض عبر الثياب، وعن شمس الصحراء المتلصصة من خلف السحاب الغائب.. أشارتْ وتَوقَفْت... تعجبتُ وسألْت.. قالت.. أنها غفت.. أن القافلة تحركت بدونها.. أنه الشيطان.. «كيف لشيطان أن ينتصر على ملاك ؟!».. ما كان لي أن أتركها خلفي، فحملتها أمامي وتهادى بنا الفرس، كأنه يرقص على عزف القلوب.. دخلت المدينة لا أطلب ليلا ولا أخشى عيونا... أوصلتها دارها / دارى، وسألت في الحي عنها.. قيل هي أنت.. فأتيت إليك يا عائشة لأحكى لك حلمي.. تعالى.

سُر من رأى

قالت إنها في حلمها كانت نائمة على سرير جميل جدا، واسع جدا كأنه الدنيا التي لم تعشها.. كان إلى جانبها رجل –عجوز جدا- عارٍ تماما.. لا تتذكر أنها رأته في الحقيقة أو لمسته وإن كانت صورته – في مرآة خيالها – تشبه تمثالا من الجبس رأته في متحف من متاحف التاريخ القديم.. القديم، و أنه أيقظها من نومها، فلاحظت أنها هي أيضا عارية تماما، لكنها – وللحقيقة – لا تتذكر إن كان سبب عريها هو أنها مارست معه الجنس أم كانت تنتظر أملة، لكنها متأكدة تماما من أنه حين أيقظها من نومها الحالم، قدم لها كوبا من اللبن «المتخثر» التهمته – لأنها كانت جائعة جدا ومتعبة جدا – بسرعة شديدة دون تذوق ودون إحساس بالمتعة – رغم شهوتها التي كانت تضرب جسدها- ثم عادت من جديد تغفو لعلها تعود لحلمها معه.

لقطات زوجية

في يومها الأول، طلبت مهلة ربع ساعة، لكنه بعد أن مل الانتظار، طرق عليها الباب.. فأجابت وكأنها لا تعرف من بالخارج.. ثم ظهرت متوارية في الخجل.

***

في يومها الثالث.. مرت من أمامه شبه عارية.. فتذكر وزفر بصوت عال وضحك.. فنظرت وتذكرت وضحكت.. لكن لحظة الخجل العابرة على عينها كانت كافية كي يذهب بها إلى السرير.

***

في خروجها الأول، حين وقفت أمام المرآة تنظر حسنها، خلفها وقف.. ضمها إلى صدره، وهمس في أذنها.. فرمت ببسمة صغيرة على أرضية الحجرة العارية قبل أن تواجهه وتترك على شفتيه قبلة وتسرع خارجة.

***

لم يأكل طعامه البارد اليوم.. انفرد بالحجرة.. لم ينتظرها

متعب..... قال

العمل.... قال

واسند رأسه إلى مخدته ونام، بينما ظلت عيناها معلقة بالشاشة البيضاء التي تنقل مشهدا ساخنا.

***

اصطدم بها فجأة وهى خارجة من الحمام.. سقطت من عليها الفوطة.. غطاؤها الأخير.. أو ربما تعمدت هي إسقاطها لتستعيد صورة جسدها في عينيه.. لكنه كان منشغلا عنها بمطاردة أوراق الجريدة - التي انفلتت

منه- قبل أن تلمس الأرض المبلولة بماء «الحموم».

***

هاتفها من خارج المنزل، سأتأخر قليلا..

صمتت.. و انشغلت بالسؤال الدائم

«هل ملني؟»..

وأُغلق الخط على سؤالها فظل معلقا في السلك البارد بلا رد.

***

اليوم احتفلا بعهد زواجهما الأول..

عاد من عمله متأخرا.

أنهت عملها في المطبخ قبل وصوله بقليل.

لم تجد سببا لدخولها الحمام.

لم يجد سببا لشرائه شمعة.

فاكتفى بأن يقبلها قبل أن ينام و اكتفت.

***

هاتفته من خارج المنزل... أخبرته أنها راحلة.

صَمَت.

قالت أنها ستحمل له صورة ستضعها على طاولة - في مخيلتها - بعد أن تحيطها بإطار مذهب يضفى على ألوانها – الباهتة– بعض من التألق والبهاء.

صَمَت.

سندريلا و زمن الحواديت

سندريلا.. خيبك الله.. هل نسيت زمن الحواديت حتى تخرجين بدون حذاء، تذهبين لقصر الأمير بدون فستانك الذهبي، تلمحين الساعة تعبر عقاربها الثانية عشرة ولا تسرعين هاربة.. ماذا ستفعل الساحرة العجوز الجالسة على فرع الشجرة الذابلة في انتظار الهروب الكبير، الفستان الذهبي والحذاء «المسحور» المفقود؟!!.. أنت قد جردتها من قدرتها على تحقيق المعجزة.. أن تلصق صورتك بصورة هذا الفحل الأمير.. مضى زمن الحواديت.. الساحرة العجوز لمن يريد أن يرى الآن صورتها.. شابة صغيرة تنام على فروع الأشجار الذابلة فتعود إليها خضرة الحياة وتثمر، تفتقد قدرتها «السحرية» على ربط الغني بالفقير.. الفحل الأمير يجلس في قصره يمسك فردتي الحذاء يقيس بهما الدنيا، وينقش على حائط قصره صورة لفتاة فقيرة «أو هو يظن هذا».. ترتدى فستان ذهبي «أو هو يتمنى هذا».. تسرع الخطى هاربة مع دقات انتصاف الليل «أو ليتها فعلت هذا».. تتعثر في هروبها، فتهرب من قدمها فردة الحذاء «المسحور».. الأمير يحلم برحلة البحث، بدهشة العثور، بدمعة اللقاء وفرحته.. لكنه الآن يمسك بفردتي الحذاء يلطم بهما وجه العالم وينوح.. سندريلا خيبك الله.. فقد أضعت بدلا من الحذاء «المسحور».. زمن الحواديت حين ذهبت للأمير غانية .

مصباح

١

آه لو أن له عينين لكنه هكذا خلق عين واحدة لا تدور.

٢

كان معلقا على بابها رأسه إلى الأرض، ليل نهار، لم يرفعها أبدا.. تنيره فينار، تطفئه ينطفئ، لم يرد لها أمرا حتى آمن الجميع أنه عبدها.. كان يظن أنه بهذا يملكها، حتى كان ذاك الصباح الأخير، فيه دخل سو من الباب، كان يرتدي حلة سوداء ورباط عنق – تمنى فيما بعد لو أنه صار حبلا يشنقه– لم يعرف له لون... دخل ثم خرج مصحوبا بالأصوات العالية والمشروبات المراقة..

في المساء جاورته مصابيح آخر، أنوار عدة، لم يعد وحيدا، لكنه وبالعادة لم يستطع أن يرفع الرأس ليرى... كانت هي في فستانها الأبيض قمرا في سماء سوداء... في ليل حالك، في يوم مثل هذا اليوم.. حزنه حوّل ضوءه –المختفي في مهرجان الأضواء– إلى اللون الأصفر.. في نهاية اليوم اختفت الأضواء وبقي وحيدا.. وحيدا.. وحيدا...

٣

منذ أن اختفت – هي– لم يعد – هو– ينار.. هذا الصباح قذفه الولد الصغير بحجر صغير حطمه، لم يبكه أحد ولم يدفنوه، فقط ظل معلقا على الباب دليلا على أن هذا البيت الذي هجرته – هي- يسكنه فقط الظلام.

حلمي وصديقي

في حلمي كنت أنا وصديقي تحت دش نغتسل، ونتبادل أحاديث تجرى كالماء، وتشاركه المصير.. فجأة شعرت كأن شيئا ما يثقل صدري.. ثم ارتفع إلى حلقى.. حتى صار غصة فيه.. حاولت أن ألفظها مرارا.. ألقيت بها على الأرض.. لكنها كانت ما تزال ممتدة بشبكة من الخيوط لجوفي.. حاولت قطع شبكة الخيوط بيدى وأسناني.. لكنى فشلت.. لفَتُها حول كفى مرات عدة و جذبتها للخارج بكل قوتي.. فانتُزعت خارجي..

قلت لصديقي : هل يعقل أن يكون بداخلي مثل هذا..؟!.

ارتسمت على وجهه علامة استعجاب مصحوبة برعب.. أحسست بشيء ما يتجمع في فمي.. قذفت به، كانت دماء متجمعة.. انتابني هاجس أنى ربما أنزف في داخلي.. ملأت فمي بالماء وواصلت قذفه للخارج حتى خرج دون دماء، فاطمأنت نفسى.. وصحوت أو ربما.. لكنى غادرت سريري.. سرت إلى مكتبي.. فتحت درج أسراري وأخرجت منه صورة حديثة لعاشقين.. تأملتها – هي «كانت» وصديقي العزيز- ثم قذفت بآخر نقاط الدم التي تجمعت في فمي – من جديد- ناحيتها.

تلوين

أبيض

للوجه اختار اللون الأبيض.. غمس فرشاته في اللون وبدأ يضرب به صفحة الوجه حتى بدت في عينيه سطح قمر .. قال لها.. اغمضي عينيك حتى لا يصيبهما بياض اللون ففعلت، عندها أظلمت حياته وفقد الرؤية.

أخضر

لعينيها اختار اللون الأخضر.. توسل لها أن تفتحهما ليسترد رؤيته... وكان... فعادت بفتحهما ألوان الطيف.. غمس فرشاته في أخضره وبدأ العزف.. كانت السهول والغابات تمتد كلما توغل في عينيها حتى وصل إلى غابة القلب\قلب الغابة المتشابكة الأغصان.. أصابه القلق عندما أحس أنه على وشك أن يضل طريقه بها، فارتد عن عينيها ساحبا فرشاته... في طريق عودته أخذ في تعليق لافتات تعين المتوغلين في أدغال عينيها على الاهتداء لقلبها...

أزرق

مريح هو اللون الأزرق يحملني دائما إلى العمق والاتساع والصفاء حيث السماء وحيث البحر.. لهذا قرر أن يجعل منه إطارا لخضرة عينيها حتى لا تندغم خضرة العين في بياض الوجه.. كان هدوء الأزرق الآن يسحب من الأبيض برودته فيتشرب بحمرة الخجل ويسحب من الأخضر عنفوان النمو وحب السيادة والانتشار كان كسماء تفصل بين عالمين التقائهما يعني الموت...

قرمزي

للقرمزي فورة الدم المتدفق في شرايين الشفتين وسخونته.. لهذا عندما التقت سخونة اللون بسخونة الشفتين اشتعلت اللوحة.. حاول أن يقلل من سخونة اللون فوضع شفتيه فوق شفتيها وقبلها.. قبلها حتى انتقلت سخونة اللون إلى شفتيه وزادت حرارته فرفع الوجه عن اللوحة تاركا شفتيها بلا رفيق عندها كانت شفتاه محتقنتين يترعرع فيهما القرمزي وينمو.

أسود

خلع معطف الليل ولف به شعرها لم يكن بحاجة لأن يضيف بالفرشاة أى إضافات فلطالما حافظ على معطف الليل نظيفا وجديدا لهذا اليوم حتى يستطيع أن يكمل اللوحة.. وقف يتأمل سواد الليل ويبحث في ذاكرته عن المكان الذي احتواه فيه كل هذا السواد.. وبعد جهد جهيد تذكر...

«نعم عندما أغمضت عينيها في بداية التلوين»

أحمر

ادخلها في ألوان عدة لكن الأحمر هو الذي فرض عليه أن يلقي بها من لوحته إلى السرير ويعاشرها.. كم سرها أن اختار لقميصها لونها المفضل.. وكم سرها أنه قد كشف منه الكتفين ومفترق الصدر والفخذين.. فكم كانت مغرمة بالعري ولولا عشقها للون الأحمر ما ارتضت أن تغطي كنوزها بقطعة قماش قط..

فردة حذاء

رمت أمه بالكرة في ملعبه.. قالت له.. أنت الأمير.. اختار..

كان كل الذي يربطه بالدنيا فردة حذاء، لذلك فتح باب الحلم، استدعى الساحرات السبع.. قلنا له.. الق أو نلقى..

تشاغل عنهن بفردة الحذاء، ثم ألقى بها.. فإذا بها..

لم يكن يدعى من قبل أن له صلة بعالم السحر ولم يسمع من قبلها بالحذاء المسحور، لكن أمه رمت في ملعبه بالكرة.. اختار.. والساحرات السبع رفعنا عصا السحر في وجه الحذاء.. فظهرت كالحقيقة واضحة.. محض خادمة.. «لون عينيها.. نعومة و انسياب شعرها.. ليونة جسدها و انكساراته.. عبق رائحتها الفواحة.. رضابها الخمر..» لا شيء مميز بها.. قالوا.. الق أو نلقى... فإذا بها.. تقرصه.

غربة

لا أدرى.. ينتابني هذه الأيام إحساس غريب لا أفهم له مغزى ولا سبب لكنه وبالتأكيد يغير كثيرا من داخلي ويزيد من غربتي في هذه الحياة.

****

سألتني: لماذا تبحث في داخلك دائما عن تفسير للخارج؟

- لأنني أعرف ما بداخلي ولا أدرى عن الخارج..

- لكن ألا ترى أنك بحصر الخارج في داخلك تفقد الخارج خارجيته وتحمل داخلك فوق طاقته؟.

- سؤال لم أفكر في إجابة له من قبل ربما لأنه لم يخطر ببالي إلا الآن حين ألقيته على مسامعي، وصدقيني إني أحس بغربة شديدة كلما نظرت إلى الخارج وداخلي هو الذي يحميني من السقوط.

****

لا أدرى.. كيف تسلل هذا الإحساس إلى الخارج وأضفى على ملامحي الحزينة علامات متزايدة من الحزن جعلت من حولي يسألونني كلما رأوا هذه الهيئة التي اكتسيت بها.. ما بك؟.

****

سألتني: لماذا لا تنزل إلى بحر الحياة وتبحث في قلب محاراته عن الحلول؟.

- أنا محاصر بأمواج البحر، فكيف استطيع الهبوط إلى المحار القابع في القاع؟

- أنت دائما تبحث عن الأسهل ولا تحاول أن تجتهد، و أنا أرى أن بحثك الدائم في داخلك وتجاهل الخارج هو هروب.

- هروب؟!!.. لولا أن السماء مطبقة على الأرض لا تسمح لي بالحركة

لاخترقت حُجبها و انعزلت.

****

لا أدرى.. نعم.. لا أدرى.. لكن صديقي الوحيد المسافر دائما، عندما التقيته في زيارته الأخيرة أكد لي هو الآخر أنني تغيرت... مرت سنوات العمر دون أن انتبه... غزا الشعر الأبيض فروة الرأس.. وتساقطت الأسنان.. و انتشرت في مساحة الوجه الصافي التجاعيد.. ليس هذا فقط.. بل أن أكثر ما أثار حيرته هو ميلي الذي اشتد إلى العزلة حتى أنه أحس أنه غير قادر على أن يصهر ذاته المشتاقة في ذاتي -كما اعتاد أن يفعل في رحلاته السابقة- ليسترد الوطن ويعود من غربته.

****

سألتني: لماذا لم تساعده وتساعد نفسك؟!... لماذا لم تحكِي له ما حدث؟!!.. لماذا لم تحاول أن تفسر له ذلك وتركته يرحل دون وطن؟.

- لم يعد في قدرتي أن أفسر.. أنا الأعزل في مواجهة الدنيا.. الحصار الذي أرفضه يزداد.. لو أملك أن أقول لما ترددت.

- أنت تسلم للمقادير بأكثر مما يجب، أحس أنك في طريق الانعزال الكامل.. أنا الآن أشعر أننا اثنان، وأن الأمر إذا استمر على هذا الحال قد تنتفى علاقتنا....

- منذ متى تسرب إليك هذا الإحساس الذي صار يحتويني؟.. كم من المرات شعرت به؟.. إنني أشعر أن علاقتنا قد انتهت منذ زمن.. انظري.. حاجز الوحدة... أحس و أنا أنْظُركِ من خلاله أننا غرباء.. غرباء.. غرباء.

حديث الليل

.....

- فمن هي؟!.. ومن هو..؟!.. ولم اجتمعا في هذا الليل يا شهرزاد؟!.

- إنهما أنا و أنت..

- أنا و أنت... كيف؟!

- لقد عبرنا باب الحكايات فصرت أنا هي و أنت هو.. هل تذكر – يا مولاي – حديث الليل .

- ماذا به يا شهرزاد؟ .

- يومها دخلت حكايتي.. صرت جزءا منها تُحْدث ويَحْدُث لك، لكنك لم تر يا مولاي بسبب هذه الأسوار، لذلك حين دخلت السرداب وعبرت وجدتني يا مولاي على صورتي تلك، ووجدتك يا مولاي كما في صورتي هذه .

- سأصعبك على الفهم اليوم يا شهرزاد.. لكن لكن.. أنا و أنت... فلم الليل يا شهرزاد؟!

- لأنك مازلت في القصريا مولاي، انظر إلى خارج أسوار الحديقة، هل ترى ذاك الشعاع الذي يندفع خارجها؟.. إنه الحياة يا مولاي.. هل تفعل..؟

- أين مسرور..؟ .. أين مسرور؟

- أمر مولاي ..

- هل ترى يا مولاي ما هو مسرور [illegible] خلف الشجرة، حتى في [illegible] مسرور خلف الشجرة [illegible] قل لي يا مولاي.. ألم تسمع قصتي بعد؟.. ألم ترددها عليك جدران القصر؟..

(كنت سيدة في قصر ما.. يوما ما دخل إلى القصر تاجر غريب يحمل سلة صغيرة.. تفاحة صغيرة أهداها لي.. «قطمة» صغيرة وغياب كبير.. حملني في سلته ووضعني فوق عربة اليد وهتف في الأسواق..

من يشترى هذه بتلك؟

وأشار إلى كيس نقوده.. وباعني.. اشتراني هو.. كم دفع ليس يهم، لكنه وضعني فوق سرير رمادي اللون في قصر خالي من الحياة وسألني أن أحكى أو أفقد الرأس..)..

فماذا أفعل يا مولاي؟ ماذا أقول؟!! ..

أحكى..؟..

إذن فاسمع يا مولاي.. كانت تحبه قبل أن تراه ولم يحبها حتى رأها، زرعا شجرة في وسط أرض جرداء و انتظرا الصيف يليه شتاءا حتى جاء الربيع.. ماذا في ربيعك يا مولاي؟!..

هذا ابني الأول منك.. هل تذكره؟! ..

(كان مسرورير اقب)

-كفِ عن المراوغة.. لما اجتمعا يا شهرزاد؟!

- للحب يا مولاي

-في خارج القصر؟!

-هل ترى في داخل القصر حبا يا مولاي؟! ..

توجد إشارات غامضة في القصة على أن سيفا ما كان يتحرك في عشوائية مخططة مقتربا من رقبة فوقها رأس به فم ينطق.... فلأصحو... فلأصحو...

كوكو كوكو...

مولاي فإلى يوم آخر.

أبناء الأسد

قالوا له: نعم أنت ابن أسد لكن أمك...
..وضحكوا.. فبكى وتذكر أمه – تلك التي اختارها الله إلى جانبه وحرمه منها- كيف كانت تقضى ليلها بالخارج لتأتى له ولأخواته بالطعام.. وكيف كانت تلقى بنفسها حين تعود إلى جوارهم تنعى يومها وتبكى الغد.. تضمهم إلى صدرها وتحكى لهم عن الذئب الذي يريد أن يلتهم الحمل، وعن الحمل الذي يريد أن يحمى الصغار، والصغار الذين يجب أن يحيوا حتى لو غاب الحمل.. وتبتسم وهى ترى البراءة المرتسمة على وجوه الصغار.. فيبتسمون..
قال لهم: «نعم أنا ابن أسد لكن أقسم لكم أن أمي لم تكن أبدا..»..
وبكى.. فعادوا من جديد إلى ضحكهم المر.. وتذكروا.. كم من المرات كانت تخرج في منتصف الليل.. وكم من المرات كانوا يقابلونها بالسباب واللعنات، وكم من المرات ضحكت في وجوههم.. وقالت..
«غدا عندما تكبرون ستفهمون، إنه عندما يكون عندكم مثل هؤلاء الصبية والصبايا المفترشين البلاط.. ستبيعون كل ما تملكون من أجل أن تحافظوا على حياتهم، و أنا لم أبع بعد سوى الضحكات..»..
وبكت... لكنهم لم يوقفوا السباب واللعنات.. حتى عندما صرخت في وجوههم ذات مساء..
: «أنا أشرف منكم جميعا فأنا أبيع لأطعم هؤلاء، أما أنتم فلما تبيعون؟..»
وألقت بنفسها أمامهم من فوق سطح بيتها ساقطة في بركة الدم الحامض، لم تثر في نفس أحدهم الشفقة، ولم يفهموا.. بل اعتبروا أن

الله قد انتقم له ولهم، ولم يبكها أحد...

قالوا له : احكي لنا عنها...

....: من أين كانت تأتيك بالطعام والثياب؟

... : لماذا كانت تخرج في أول الليل مثل شمس النهار وتعود مع الفجر غاربة؟..

....: هل تعرف كم كان ثمنها؟...

وضحكوا.. فبكى.. و أقسم من جديد...

«إنها لم تكن.. لكن الزمن – وقد علمه الكثير- لم يتح لكم بعد أن تفهموا.. أنه عندما يكون لدى المرء مثل هؤلاء الصبية والصبايا المفترشين البلاط.. لن يتردد في بيع أي شيء من أجل الحفاظ على حياتهم»

وبكى.. فصمتوا...

الفأر الذي أكل القط

يوم ذهبت إلى السلة ولم أجد ما اعتدت أن أجده من بقايا الخبز بها لم أنشغل كثيرا.. جلت في البيوت المجاورة، ولم يطل تجوالي ففي إحدى السلال وجدت بغيتي وأخذت ما أردت و أكثر ومضيت إلى حال سبيلي.. حتى في اليوم التالي عندما لم أجد في السلة بقايا الخبز و اتجهت إلى البيوت المجاورة ولم أجد بها إلا أقل القليل لم أفكر كثيرا.. قلت لنفسى... «ربما يوجد سبب ما يمنعهم الخبيز، لكن لا داعى للقلق فغدا سوف يخبزون..»

لكنى حين ذهبت في اليوم الثالث ولم أجد ما أقتات عليه لم يبق في نفسى ذرة شك في أن القحط قد ضرب بجذوره في هذا البيت والبيوت المجاورة و أنه لم يبق أمامي سوى الهجرة... وهجرتي ليست بالأمر الجديد.. فأنا دائم التنقل من بيت إلى بيت، لم يلفظني يوما بيت، لم يبخل عليَّ، دائما ما يبوح لي بأسراره ويكشف عن كنوزه المخبأة.. حتى أنني أحس دائما بألفة بيني وبين هذه البيوت.. أختار دائما أكثرها راحة، فالأكثر هو الأغنى، والأغنى دائما ما يتوافر لديه الطعام، ويزداد فتات الخبز وبقايا الجبن المولع بهما...

فلتكن الهجرة.. متسلقا الحوائط أمضيت يومي متنملا بحثا عن الأفضل، لكن ما أقلقني حقيقة أنه في جميع السلال التي قابلتني لم أجد أي فتات خبز... ماذا حدث لهؤلاء الناس؟!... تشابهت البيوت.. جميعها فارغة.. عدت من جديد إلى مكمني.. «عليَّ أن أقبع و أنتظر...»

***

الشمس تشرق وتغرب، والليل يسبق النهار، والجوع يحاصرني، كل بيوت

القرية معدمة.. دخلت بيوتا لم أكن قد دخلتها من قبل حتى وصلت إلى سور.. أين بدايته؟!... أين نهايته؟!... فلأتسلق و أنظر... إنه يختلف عن كل بيوت القرية...

«هنا سوف أجد ما أريد و أكثر»

***

حين دخلت البيت كان القط ينام على سريره.. جفلت.. لم يتحرك له جفن.. نظرت إليه مليا.. استعدت هدوئي لسكونه المبالغ فيه كل ما حولى يمكن ان يؤكل.. حتى جدران هذا البيت لكن اثمن ما في هذا البيت هو هذا.. فليكن هو بدء الطعام... التهمته....

(التهمه الفأر).

***

حين هاجمني الفأر رعبت، لم أكن أتخيل أن يهاجمني يوما ما فأراً، كثيراً ما أكلت من هو مثله، بل أن أحجاما أكبر منه كانت تفقد قدرتها على الحركة بنظرة مني..

منذ وصلت إلى هذا البيت ووضعت على هذا السرير، وصار يشرف على طعامي وخدمتي الكثيرون، لم أعد بحاجة إلى الفئران، نسيت أن هذه المخلوقات التعسة تحيا في هذه الدنيا، نسيت كيف تصاد... أي حظ عاثر ألقى اليوم بهذا المخلوق التعس أمامي.. شهيتي للدم خفتت.. مر من أمامي مرات عدة.. كان يبحث وينقب كمن يرى العالم لأول مرة.. صدمه ما يراه، مثلى حين دخلت البيت لأول مرة... «ربما تتبناه هو الآخر أمي الرؤوم»... كنت أرمى عليه نظراتي النارية، لم تصعقه، لم تسعفني السمنة.. حين استدار وأمسك ذيلي.. لم أهتم.. قلت.. «ربما أمسكه على سبيل الخطأ»... حين وضع ذيله أمام عيني، حين داعب شواربي، شد أحدها مسببا لي ألما حادا... قلت لنفسي.. «دعه يلهُ لا تجعل فأرا

يقلق نومتك المريحة..».... -لولا التخمة لالتهمته -... منذ سنين عدة لا أفعل شيئا سوى الأكل والنوم... «آه يؤلمني بتصرفه».. هنا من الطعام ما يكفيه.. لماذا يوجه لي تلك النظرات النارية؟!.. لماذا أنا دون باقي الموجودات؟!!!!

***

ما حدث في اليوم الذي أكل فيه الفأر القط

طال الليل قليلا.. ضرب الجوع القرية وتساقط الفلاحون في الطرقات والحقول والبيوت مرضى وجثث... حاصرت الشرطة القرية وعزلتها، تحدثت الحكومة عن مشروع جديد لاستصلاح الأراضي ووعدت بتوزيعها على الفلاحين والخريجين.... ضربت سيارة مسرعة عابر طريق.. لم تتوقف.

دق المنبه في حجرة نوم السيدة، هبت من نومها، ذهبت إلى المطبخ، في طريقها أيقظت عددا غير قليل من الخدم، فهذا موعد تناول القط لغذائه وهو السبب الوحيد الذي من أجله تدخل إلى المطبخ، فهي لا تثق في أولئك الخدم.. تخشى أن يتسرب التلوث إلى أكل ابنها، فلذة كبدها، ولهذا فهي تعد له وجباته الغذائية بنفسها.. أخرجت الفرخة من الثلاجة ووضعتها في الماء بعد أن أخلتها من العظام، أشعلت النار وجلست تنتظر....

كان الليل يطارد النهار يقتله في الطرقات.. والقمر ينظر ولا يرى في الظلام.. والنهر يجرى ويجرى حتى يغشى عليه من التعب دون الوصول إلى هدف.. والقط ينتظر الغذاء بلا رغبة حقيقية والفأر والجوع شريكان متلازمان.....

***

لم هو دون باقي الموجودات؟!!..

كل شيء أمامي يثير الشهية... الأثاث.. الستائر.. السجاد... أصناف الفاكهة الموضوعة فوق منضدة تتوسط الغرفة... عشرة أيام لم أذق خلالها إلا أقل القليل.. هزل الجسم.. هزل حد الموت.. لماذا اخترته.. لا أدرى.. حين دخلت لم يكن يجول بخاطري ما حدث.. أنا أهاجم قطا .....؟!!!

قصتي وقصته معروفة.. كنت وهو أصدقاء.. يوما ما أراد فأر أن يعبر نهر الحياة لينال الخلود.. قال له قط.. هيا أعبر في قاربي، حمله حتى المنتصف عندها امتلكه الطمع فافترسه... من يومها لم يجرؤ فأر على معاشرة قط فكيف بمهاجمته!!؟...

حين رأيته بحجمه الهائل رعبت.. لولا حاجتي الملحة إلى الطعام ما جازفت قَطْ... تسللت.. لمحني.. لم يتحرك.. ألقى ناحيتي بنظرات خملة.. ثم عاد من جديد إلى النعاس.. اقتربت.. تحسسته.. إنه محض دمية... دمية شحم ولحم على شكل قط... أ كل هذا له هو؟!!... من يكون؟!... لم يفضل هذا المخلوق عليَّ وعلى الفلاحين؟!... أكرهه.. أكرهه كما لم أكره قطا من قبل رغم افتراس القطط الدائم للفئران... أشاكسه.. يسترخي مستطيب النعاس.. نعم أنت أثمن ما في هذه الحجرة وأحقها بالأكل... سأبدأ بك.....

***

لماذا أنا دون باقي الموجودات؟!....

يلتهم الذيل... آه... ألم شديد.. من سنين عدة، لم أعد قادرا على الحركة.. أدمنت الكسل.. في البدء كنت مثل أي قط... حتى اشترتني أمي الرؤوم.. يومها.. احتضنتني.. قبلتني.. قالت وكلماتها تنز ألما...

- من اليوم أنت ابني الذي لم أنجبه، لن أجعلك تحتاج إلى شيء في هذه الدنيا... سأدخلك جنتي.

لم أفهم... ماذا تستطيع أن تقدم لي.. مطالبي تنحصر في قليل من الطعام والشراب... ما يسد الرمق ويحفظ الحياة... لكن حين أتى موعد الغذاء آمنت أني لم أكن أحيا وأن الدنيا قد ابتسمت لي، يومها أكلت حتى كدت أن أموت من كثرة الأكل... في المساء آمنت أن الجنة سهلة المنال و أنه فقط الحظ... ونمت.... سنون عدة يأتي لي الطعام و أنا راقد هنا... آكل حتى أموت شبعا ثم أنام.. طبقات الشحم المتراكم تحدث بما أنا فيه من نعيم.. سبحانك ربى تعطى من تشاء... فلماذا أنا دون باقي الموجودات؟!!

***

ما حدث في اليوم الذي أكل فيه الفأر القط

داس الناس في الطرقات جثة النهار بحثا عن قاتله والطعام، أخرج الليل لسانه إلى ناس الطرقات العابرين والمتسولين، كانت القرية على حالها وقوات الأمن في ازدياد والأم الرؤوم تغالب النعاس والطعام على النار والقط في انتظار معجزة والفأر يلتهمه...

***

لم هو دون كل الموجودات؟!!....

لماذا اخترته؟!!... لا أعرف.. لكنه وبالتأكيد أهم مافى هذه الحجرة ما دامت مُسخرة له.. عشرة أيام لم تدخل جوفى لقمة.. عشرة أيام وسلال الخبز فارغة.. يموتون خارج هذا القصر جوعا وهذا لا يشعر مجرد شعور بما يحدث في الخارج ولهذا ينام ويأكل... يتضخم.. ينفجر الحقد داخلي...

ماذا لو آكلك يا هذا؟...

هل ستحزن عليك سيدتك؟...

هل ستمتنع عن الطعام فتموت؟...

أعرف أنها متخمة بالطعام مثلك و أنني إن هاجمتها فلن تستطيع الدفاع

عن نفسها ستنتظر منك أن تدافع عنها... ليكن سأهاجم سيدتك ومادمت ستدافع عنها سأهاجمك أيضا.. ها أنا ذا أقرض ذيلك.. أذنك... أنفك.. الدم يندفع.. يثير غرائزي.. يزداد نهمي للافتراس.. ما أحلى الأكل بعد طول جوع.. توقفت فيك الحركة.. الآن أقرض جثة ميت.. آه... شبعت... امتلأت حتى آخري... لو أعلم لأتيت بعشرات الفئران إلى الوليمة.. آه لو أعلم....

***

لماذا أنا دون باقي الموجودات؟!.....

لو أن سيدة الدار.. أمي الرؤوم تدخل الآن لأنفذتني.. رعبي أكبر من أن يحتمله قلبي الرقيق... فرائي الثمين يعبث به هذا الحيوان القذر.... مئات الأيام يأتي الطعام في الميعاد، لو تأخر بضع ساعات لأكلته.... آه... ماله يلقى لي بنظراته النارية.. أعرف أن هيئتي لم تعد تخيف، لكنى قط وهو فأر ويجب على الفأر أن يخاف القط... «ما له لا يخشاني»

يقرض ذيلي... لماذا؟؟... من سنوات لم أقتل فأرا، هل بينك وبيني ثأر قديم... يقرض الأذن.. آه... لو يقترب من أسناني لو يضع رأسه بينها ويدعني حتى أضغط.. يؤلمني.. لو تدخل الآن سيدة الدار.. الغرفة مغلقة... لو ملأت الكون ضجيجا لن تسمعني.. يا سيدة الدار انجدي ابنك... يا هذا اذهب وكلها هي أسمن مني، أضخم مني، ستجد ما يكفى عشيرتك وقريتك اذهب... اذهب.. مالي ارتعش.. قواي الخائرة تخور.. أسقط على جانبي، يعتلى جسدي، لم يعد يقرض، ولم يعد يؤلمني، لكنى أموت... آه لو سيدتي تعلم.

***

ما حدث في اليوم الذي أكل الفأر فيه القط

انطفأت أسطوانة الغاز... أسرعت الأم الرؤوم إلى التليفون.. ترك

عامل الأسطوانات طوابير الواقفين وأسرع بواحدة.. في الطريق أزاح المتجمعين طلبا لها.. ركب الأسطوانة.. مهرته السيدة الأجرة مضاعفة.. شكرها وانصرف.. أضرب عمال طلبا لزيادة الأجر بعد أن صار الأجر لا يكفى «العيش الحاف»... تدخل البوليس وفض الإضراب بالقوة... ضربت سيارة مسرعة عابر طريق... لم تتوقف... رفعت الحكومة أثمان الزيت والسكر والشاي والبنزين ووعدت بزيادة المرتبات.. أنهت السيدة الطعام وذهبت تتقدم ثلاثة من الخدم إلى الحجرة.

***

في الحجرة

كان الأثاث على حاله.. السجاد على حاله.... الستائر.... المأكولات.... لكن القط.... «دم».... «دم».... على حافة السرير وجدته جثة... أسرع الخدم لطلب البوليس والدكتور.. جلست الأم الرؤوم تبكى فقيدها.... كان الفأر في الركن المقابل ينظر مندهشا... علام تبكى.. أعلى هذا الأبله؟!!.... تطلع إليها... إنها تكفى مئات الفئران وعشرات القرى... لمحته... كان يصوب إليها نظراته النارية.. ارتكزت على حافة السرير... تقدم نحوها.. صرخت بأعلى صوتها....

- سيأكلني....... سيأكلني......

(ستأكلها؟!!!... امْشِ يا فار يا ابن الكلب... هتاكل ستك... لا دا أنت زودتها قوى)

توقف الفأر.. نظر لي مستغربا..

(مش أنت اللي قايل لي كلها)....

غمزت له... فهم الفأر وانصرف، لكنى كنت أبيت النية كي يأكلها الفأر.

الشارع الذي ينزف دما

حين تلقى الضابط البلاغ تعجب.. نقل عينيه بين البلاغ ومقدمه عدة مرات.. (الرجل لا غبار عليه).. أعاد النظر إلى البلاغ، تحول التعجب في عينيه إلى شك.. (منذ زمن طويل لم يحدث هذا.. ا لشارع ينزف دما!).. لابد أن الرجل مجنون.. بهدوء دق الجرس.. دخل العسكري المنتظر – دائما- على الباب

- اذهب به.

رفع سماعة التليفون طالبا مستشفى الأمراض العقلية.. لم يفهم الرجل شيئا لكنه سار مع العسكري دون اعتراض.. ابتسم «شارع ينزف دما!».. انتابته حالة من الضحك الهستيري..

-مجنون..

التفت إليه العسكري

- أفندم؟.

- اغلق الباب خلفك.

خلد إلى الراحة.. حاول أن يتناسى ذلك البلاغ المجنون، بدأت تعود اليه حالته العادية.. فجأة رن جرس التليفون رنات متواصلة.. رفع السماعة ببطء.. كان المتكلم يسرع في سرد حكايته عن شارع ينزف دما.. اسرع بفكره إلى المجنون.. «هل هرب ؟!»... ضغط زر الجرس.. سأل العسكرى حين دخل

- أين الرجل الذي أخذته من هنا؟

- في الحجز سيادتك..

احتار.. صرفه بإشارة من يده.. وواصل مكالمته.. كان المتحدث هذه

المرة شخصية مرموقة.. «لا يمكن أن يكون قد اختل عقله هو الآخر».. وضع السماعة.. صمم أن يذهب بنفسه ليرى مدى صدق هذه المزاعم.. خرج.. أدى إليه العسكري المنتظر – دائما – على الباب التحية.. أمره أن يسرع بتعبئة إحدى العربات بالعساكر.. ارتفعت يد العسكري من جديد بالتحية.. وأسرع لتنفيذ الأمر.

عند وصوله إلى الباب الخارجي وجد أن العربة قد حملت بالعساكر وإنهم على أهبة الاستعداد.. أدى له سائق عربته التحية، أمره وفكره منشغل عنه وعن تحيته بالذهاب إلى الشارع.. استعد السائق للانطلاق.. وصل إلى سمعه همهمات صادرة من الخلف، نهر عساكره.. امتنعت الهمهمات..

تحركت العربة.. بعد قليل.. صارت الحركة أبطأ من المعتاد.. والآن توقفت العربة تماما وسط بحر من العربات المتوقفة.. أمر عددا من عساكره بالنزول من العربة والذهاب لمعرفة سبب هذا التوقف.. تسابق العساكر إلى تنفيذ الأمر.. مرت الدقائق ثقيلة.. هرب بفكره إلى المكتب والجلسة المريحة والهواء الرطب والعسكري المنتظر –دائما- على الباب يُأمر فيطيع كجن ألف ليلة وليلة.. انتبه على صوت الحذاء الذي يحتك بالأرض مؤديا التحية..

- ماذا يوقف المرور؟

كان العسكري قد تلبسته حالة غريبة.. فلم يكترث.. أعاد السؤال عليه من جديد.. رفع العسكري رأسه ولم يدر بما يجيب فصمت.. ماذا يقول.. صرخ في وجه

- انطق.

ازدادت حيرة العسكري وخرجت الكلمات من فمه ميتة..

- الشارع ينزف دما..

- اللعنة على عقولكم الخربة.. أي شارع هذا الذي ينزف دما.. أليست لكم عقول؟!!..

زاد صمت العسكري وحيرته من ضجره وغضبه فأخرج كل ما في جعبته من لعنات على رأس العسكري الصامت..

- أحك ما رأيت بالتفصيل.

عينا العسكري العلقتان في الفضاء ظلتا على حالهما دون حراك حتى ظنه قد فارقته الحياة.. أسرع بمغادرة العربة والتحرك إلى أول الطريق لعله يعرف السبب.. في طريقه قابل عساكره عائدين.. كانت تشملهم حالة الذهول.. زال شكه.. أمرهم صارخا بالتوقف.. جمع من كان في العربة.. أمرهم بأخذ الوضع الأقصى للاستعداد.. على الفور.. أخرج كل عسكري أسلحته من جرابه ورفع درعه الزجاجي أمام وجهه..

كان راكبو السيارات ينظرون بإعجاب إلى العساكر وهم يتقدمون في خوذات الحرب.. يلقون على مسامعهم كلمات الاستحسان.. وصل إلى أول طابور السيارات.. كانت مجموعات من العسكر تسد الشارع، تفصل بأجسادها بين راكبي السيارات المحتجزين خلفهم وبين الشارع الذي يموج بالحركة.. بصوته الجهوري.. أفسح لنفسه مكانا بين العسكر.. حتى استطاع الوصول إلى الصف الأول.. نظر.. «يا للشياطين.. ما هذا..؟!!».. كانت الدماء على الأرض تسيل.. «الشارع ينزف»... أحيي لون الدم في داخله إحساسا غريبا.. شعور بالخوف يتجمع حوله.. يحتويه.. تجمعت ألوان من الدروس والتعليمات والأوامر الصادرة.. ما تعلمه في سنوات عمله.. رفع صوته بالاستعداد.. جاءه.. من عساكره الصمت أمر بالهجوم.. غاص العساكر في بحر الدم الآخذ في الإحاطة بهم.. عملت أيديهم في سرعة ومهارة.. تزايد الدم.. أحس الجنود أنهم يغرقون.. أن الدماء تبتلعهم.. تغسلهم.. وتتركهم نازفين..

ترك الضابط الشارع ورجع إلى سيارته مسرعا، أمر السائق بالعودة إلى القسم.. أدى العسكري المنتظر-دائما- على الباب التحية.. أمره أن يسرع ليعبئ العربة بالعساكر.. هرول العسكري المنتظر–دائما- لتنفيذ الأمر..

جلس على مكتبه.. شرع في كتابة تقريره.. أصوات جلبة وضوضاء تصل إلى سمعه آتية من الخارج نظر من الشباك.. الدماء تملأ الشارع تواصل تقدمها باتجاه القسم.. غادر المكتب مسرعا.. أمر الجنود بالانتشار.. هاله حالة الجنود وبقع الدم التي بدأت في الظهور داخل القسم.. أسرع إلى التليفون لطلب العون.. لا مجيب.. أحس أنه قد عزل عن العالم.. بينما الدم يواصل تقدمه يحيط بالقسم من جميع الجهات.. ويحتويه.

طوارئ ٢٠١٠

سنده المخبران وهو ينزل من العربة.. مال برأسه على كتف أحدهما، عاجله الآخر بضربة على وجهه عدّلت رأسه المائل النازف دون أن يَصْدُر عن الرأس صوت ألم أو تذمر..

أين كان..؟

أشار المخبران إلى مركز الكون.

- اتركاه مكانه..

تركاه.. استلقى على وجهه، عاجلته ضربة قدم فتكور حول نفسه في وضع جنيني، لكنه لم يستطع الوقوف.. تحرك المخبران إلى حيث يلقى الضابط بظله الثقيل ووقفا كظله.

ما قبل الحادث بدقائق

دون أن يدرك أن هذه كلماته الأخيرة سأله...

- ماذا تفعل؟

- أحاول أن استعدى الكون بأن أعيده إلى نقطة الصفر.

- ماذا تفعل؟

- أحاول أن أعيد طلائه من جديد بلون غير هذا الرمادى لعلنا نرى.

- ماذا تفعل؟

انهزم أمام السؤال... فقال

- أرفع فيديو على النت.

وسكت لأنه عرى السماء.

ما حدث..

١- القسم

أثناء مرور قوة من المباحث لمتابعة الحالة الأمنية، شاهدت القتيل (سابق اتهامه في ٤ قضايا سرقة، حيازة سلاح أبيض، تعرض لأنثى بالطريق العام، هروب من الخدمة، مطلوب ضبطه في حكمين بالحبس شهرا في قضيتي حيازة سلاح أبيض).. و..... بحوزته لفافة (يشتبه) أن بها مادة مخدرة، و....... فرهاربا، إلا أن الشرطيين تمكنا من ضبطه..... لكنه ابتلعها.. ليصاب بحالة (إعياء شديدة) نقلاه على إثرها........ للمستشفى........ إلا أنه فارق الحياة.

ملاحظة: لم يستطع الشرطيان التعرف على ملامح الجثة وربطها بالقتيل وإن أكدا أن هذا الشكل –الذي لا يشبه الإنسان– كثيرا ما يقابلهما في عملهما أو بعد عملهما.

٢- شاهد عيان

رفض الشاب التفتيش فانهال عليه المخبران بالضرب، دفع أحدهما برأسه إلى الحائط فاندفع الدم منها، عندها طلبتُ منهما الخروج من المقهى وأغلقته.. .... في الشارع لم يتوقفا عن ضربه.... (رغم الدماء)... حتى سقط على الأرض.... سحلاه إلى مدخل عقار... ودُفع رأسه لأكثر من مرة في البوابة الحديدية وفى السلم.... بالضرب المبرح حتى صمت الشاب عن الصراخ، وظلا يعتديان عليه رغم صمته.... أن نقول لهما إنه مات، لكنهما... إنه (يدعى) الموت.... فأكد لهما أنه مات..... اصطحباه داخل سيارة الشرطة، ثم عادا بعد قليل وقاما بإلقاء الجثة على الأرض ومن ثم استدعيت الإسعاف..

ملاحظة: ... سأل الشاهد المحقق فجأة... كيف لإنسان أن يدخله كل هذا الحقد والغل؟ .. أى آلة تستطيع صنع مثل هذه النماذج الحيوانية؟ .. تعتقد أنا هأقدر أموت موتة ربنا؟.

٣- بيان صادر عن مكتب النائب العام

أثناء سيره بالطريق العام..... الشرطيان تتبعا المجنى عليه..... وشل مقاومته، وتقييد حركته، (بدون وجه حق)، وحاولا انتزاع اللفافة.... من (يده عنوة)، فتمكن من (مغافلتهما) و ابتلعها و إثر ذلك تعديا عليه بالضرب، ودفعا رأسه ليرتطم بجدار من الرخام في المقهى.... حيث واصلا التعدي عليه بالضرب... فأحدثا به الإصابات الموصوفة.....

إن التحقيقات (انتهت) إلى استبعاد جريمتي «القتل العمد»، و»الضرب المفضي إلى موت»... لانقطاع (رابطة السببية).... وأنه لا دخل للإصابات بالوفاة....

إن الأحكام الغيابية تقضي إعلان المحكوم ضده بالحكم..... وقد ثبت.... أن الحكم الغيابي الصادر ضد.... لم يكن قد تم إعلانه، (مما لا يجوز معه القبض عليه).

فقرة من كتاب فاقد للقيمة

الحرية الشخصية حق طبيعي وهى مصونة لا تمس وفيما عدا حالة التلبس، لا يجوز القبض على أحد أو تفتيشه أو حبسه أو تقييد حريته بأى قيد أو منعه من التنقل، إلا بأمر تستلزمه ضرورة التحقيق وصيانة أمن المجتمع، يصدر هذا الأمر من القاضي أو النيابة العامة وذلك وفقا لأحكام القانون.

(الدستور المادة ٤١)

صورة للقتيل

للأسف لم يستطع القاص أن ينقلها لأن وجه القتيل قد مُزق تماما وما بقى لا يصلح ليكون إنسانا أو شبه إنسان.

العفو..... منه

قالت منظمة العفو...... إن الصورة المرعبة دليل صادم على أن الانتهاكات جارية في مصر....

هذه الصورة هي إشارة نادرة ومباشرة للاستخدام الروتيني للقوة الوحشية من قبل قوات الأمن... في مناخ من عدم المساءلة والحصانة.... قانون الطوارئ يوفر المظلة..... إن هذه الانتهاكات قد تستمر بضمان عدم مساءلة مرتكبيها.

....

نزل وكيل النيابة من العربة.... نظر إلى الضابط والمخبرين، سأله..

- تم الأمر هنا؟

هز الضابط رأسه.

نظر وكيل النيابة إلى الوضع الحنيني وأعاد رسم وضع الجسد بقدمه وفتح باب الأسئلة

- هكذا كنت... أليس كذلك؟

-

دعنا نعود إلى البداية... أنت مثلى ترى السماء عارية لا يحجب شمسها ظل.. فلا تدعنا نقضى يومنا بعيدا عن مكاتبنا.

- هل تعرف هذين الشخصين؟.. هل تعرف وظيفتهما؟

-

- هل صحيح أنك قاومت..؟.. و أنك بصقت في وجه الأول، وسببت الآخر بأمه التي لم ترها...؟

-

-هل تعترف بأنك مدمن؟ و أنك حين قبض عليك كان معك.... و ابتلعتها

مما أدى إلى موتك؟

-

- أتقر بأن صمتك دليل على اعترافك بكل ما هو منسوب إليك؟

-

- أتقر بأنك عوملت في الشارع –كغيرك– بكل الاحترام الواجب أن يعامل به شخص – كغيره- مات من قبل آلاف المرات؟

-

-

-

-

أقر المجنى عليه بما نسب إليه.. يقفل التحقيق في ساعته، وتنقل الجثة إلى المشرحة...

أشار الضابط للمخبرين... رُفع القتيل إلى العربة من جديد.

ليلة انتظار الموت

نزل من الجبل.. دخل المقهى وجلس.. تقدمت منه الر اقصة العارية وعرضت أن ترقص من أجله رقصته المفضلة.. أشار لها.. بدأ الكون في العزف.. انسحب بخياله إلى يوم اضطره الظلم إلى الالتجاء للمغارة.. في مغارته حاصرته الخيالات والأوهام... «غياب الرجال ليس دليل خير»... أنبأته العارفات بالأحلام.. أن الحجر الساقط لن يرتفع من جديد إلا بالموت.. تذكر كيف عُلق وترك -بلا طعام- أياما ثلاثة.. انهار في داخله آخر الأحجار فانفتحت أبواب الشهوة.. ألقت الر اقصة العارية بيدها على رأسه فطار طائر أحلامه وحط بين ثدييها فنفرت وأسرعت إلى منتصف الحلبة.. تراجع واستعاد صورة الجبل.. حجارته التي تنزوحدة ليل نهار.... «سنبلغك فلا تنسى.. الرجال دليل خير..».. أنبأته العارفات بالأخبار.. إنها آتية... تذكر أنها آخر من يحتفظ بذكراه – داخله – من أبناء قريته الذين يعايشهم نفس الظلم... انهارت ثلوج القلب.. استعادت الر اقصة المبادرة من جديد وبدأت الهجوم... تراجع مذهولا فاصطدم بها وهى عاندة حاملة جرتها وتذكر لحظة الملامسة.. أخبرها أنها إن عادت ستكون تلك نهاية رحلة غريبة بدأت –له– منذ زمان بعيد حين اختار الجبل واختاره [illegible] سالك دروبه حتى اهتدى إلى مغارته [illegible] فسكن... خاطبه الوحي أنبأه أسرار الجبل وأسرارها.. اهتدى على يديها فآمن أن المرء يستطيع أن يعود من الضياع متى شاء ومتى أخلصت.... نام على يد الر اقصة فتركتها له وذهبت لتكمل الرقصة.. أدار له الساقي الكأس.. ابتسم لأنها كانت قريبة إلى درجة الوصل والاتحاد.. تنسم شذا عطرها.. ورآه على بطنه يعلم أحد أحفاده السباحة في نهرها فاشتهى

أن يكون الحفيد.. وقلق لعدم وصول الرجال.. الرحلة صعبة والطريق ما بين محطة القطار ومهبط الجبل ممهدا بالأخطار فاستقام نظره سيفا وألقى به في اتجاه الطريق... شدته من حده الر اقصة.. كانت تهز بطنها وتدور كالرحى فدار داخلها وصار دقيقا أبيض بلون بشرتها.. أخبرته بالعودة وأخبرها بالأحوال وأصرت.....

اليوم جاءته البشارة كان يوم ليس مثل أي يوم فيه عطس آدم وحاول القيام.. وفيه ألقى موسى بعصاه فأخرج حية تلقط حيات.. وفيه عبر المسيح على صليبه إلى الخلاص.. وفيه نزل عليه الوحي فإذا بها تركب القطار.. أنبأته العارفات بالأحلام.. أن الحجر الساقط لن يرتفع إلا بالموت فجلس يائسا على المقهى ينتظر....

هذا ما حدث بالفعل

خرج سيد من بيته مبكرا، حاملا شبكة الصيد على كتفيه.. اعترضته الكثير من المصاعب والعراقيل في الطريق.. حجر ألقى به ولد صغير، مياه غسيل أو مسح أو صرف صحي تسربت للطريق من شقة أرضية أو بيت أو بالوعة، حفرة لإصلاح ماسورة مياه منفجرة، وأخرى لخطوط الكهرباء، وثالثة للغاز.. وغيرها.. عبرها كلها دون تذمر أو تأفف أو إحساس أو تصنع للغضب ودون أن تهتز الشبكة على كتفيه حتى وصل إلى النهر الذي رحب به ودعاه للجلوس على شاطئه.. لكن سيد لم يأت للزيارة ولا للتنزه لكن للعمل، لذلك اعتذر بأدب و اتجه إلى قاربه الصغير، أوسع لشبكته مكانا به وألقى بها من فوق كتفيه و اتجه إلى المجدافين... سيد يجيد دائما استعمال مجدافيه، فاسرع قاربه في اتجاه منتصف النهر- الذي لم يكن عميقا ولا عريضا كما هي دائما الأنهار- توقف قارب سيد في المنتصف، استعد سيد لإلقاء شبكته وجمع الرزق، أدار شبكته في الهواء وتركها، فحرك سقوطها في سطح النهر الجاري موجة آثر موجة ونزلت الشبكة ببطء إلى القاع.. تحرك قارب سيد بفعل حركة النهر وبدأ سيد في جمع شبكته... عروس النهر لم تكن هي الصيد الوحيد العالق في الشبكة.. كانت هناك أسماك البلطي والقراميط والشيلان... سعد بها سيد كثيرا، لكنها خيرته بينها وبين سر يمكن أن يغنيه الباقي من عمره... سيد كان يعلم -أو يظن- أنها في النهاية عروس نهر، وأنها لن تقبل أن تعاشر أو تعايش بشرا بعد أن اختارت و اختارها النهر زوجا، لكنه أيضا كان يراها – ربما في حلمه- في قلبه جالسة.. للوقت هنا ثمنه.. فرمى بقلبه في الماء أمامها واختار السر.. نظرت له وحزنت لاختياره، ولكنها قالت له..

- خذ شبكتك إلى منتصف النهر من جديد وألقى بها، ثم شدها إليك يخرج لك فيها كتاب الحكايات.. فك شفرته لا تشقى بعدها أبدا..
سيد أخرجها من شبكته، فأسرعت إلى الماء.. فقط انتظر حتى غابت عن عينيه بقلبه وألقى بالشبكة.. بالبلطي والقراميط ... ... والكتاب خرجت.. لم يزد على ذلك وحمد ربه واكتفى.. عاد بقاربه إلى الشاطئ.. أعاد تسكينه عليه وأخرج رزقه منه بعد أن وضع الكتاب منفردا في كيس من القماش حمله على ظهره واستدار للنهر بعد أن ألقى عليه تحية الوداع ومضى في طريقه.
في السوق باع سمكه واشترى ما يحتاجه يومه من طعام وشراب وعاد إلى بيته.
في البيت أتى بلمبة الجاز، اشعلها.. وضعها فوق «الطبلية» في منتصف غرفته، وجلس.. أخرج الكتاب من كيسه.. ألقاه أمامه على «الطبلية» وبدأ في فتح صفحاته وتذكر أنه خسر قلبه مقابله، فانتابته حسرة.. وسأل نفسه... «لماذا لم أعط نفسي مساحة كي أفكر ربما تغير عندها الاختيار؟..».. لكنه ألقى بحسرته جانبا.. فهو يعرف نفسه ويعرف إن الحسرة لن تنتهي حتى لو عاد إلى النهر واستخرج قلبه.. فالحسرة الآن تسكن روحه.

ملل

منذ أن صعد السلم وارتقى أصابه الملل.. فقد علم كل ما كان يمكن أن يعلمه، لهذا جلس على درجة السلم الأخيرة.. وبدأ يفكر فيما سيقضى بقية عمره -كان الزمن يضرب جدران الكون يقطع الطريق صاعدا.. هابطا.. قَلِقا في انتظار فعله- أعياه الفكر.. لاحظ خطوط الشيب التي ضربت فوديه والخمول الذي ينز من عينيه.. يسيل.. يبلل قدميه.. فكر في أن يقتطع هذا الجزء المبلول، ينشره على أي درجة من درجات هذا السلم حتى يجف -لعل النشاط الذي بدأ به رحلته يعاوده.. وفعل.. لكن ما كان يُقلقه حقيقة.. كيف يوقف هذا الخمول المنهمر من العين!!؟؟.. نظر إلى أعلى..

«هل كان يعلم أن ارتقائي سيقودني إلى الجنون؟!..»...

فيما سيقضى بقية عمره؟!.. هل يفعل مثلهم يركب حصانه الأبيض، يشهر سيفه ويدور في البلدان فاتحا؟.. هل يعود إلى النظر في عيني محبوبته -تلك التي كان فيما مضى يشعر أن الغيب ينكشف حين ينظر داخلهما- لعله يرى؟.. هل يعود من جديد إلى المرأة اللعوب يراودها عن نفسها وتراوده عن نفسه؟.. تجذبه إلى عالمها، ليَقتل أو يُقتل، يَسجن أو يُسجن، يَظلم أو يُظلم، يعيش الفقر ويحلم بالغنى؟.. أم يتلبس زي الفقهاء/العلماء ويفتي بأكل الخنافس والصرصور والبعوض ويحرم أكل الذباب والناموس؟.. أعياه الفكر فتح دفتر يومياته -ذاك الذي ملأه بما رأى وعلم في رحلته المشؤومة- في صفحته الأولى.. جذبه نداء غامض.. سؤال.. أرهقه السهر حتى فُتح الباب.. دخل الضوء.. وتوالى.. ليالٍ لم يرفع وجهه إلى أعلى حتى لا يرى غير ما يُرى..

«كانت المرأة اللعوب تراودني تجذبني وكانت تنتابني في لحظات الصحو القليل تلك الرغبة الجهنمية، يحتويني ذاك الاشتهاء.. عندها كنت أعود للنظر في عيني محبوبتي فتدثرني وأرى الغيب.. أقول لها أنى سأهجر هذه الأرض لو تركتني و أبكى، فتضحك.. لكنى عودت النفس أن تُدير الظهر لها وأحنيه –آه من آلام الظهر– وأصعد.. أصعد..»

.. تمنى لو يرى مالا يُرى واستُجاب.. فتح يوما ما عينيه، هل هذه هي الصفحة الثانية؟.. «كيف وصلتُ إلى هذا العلو؟!.. لم أستطع أن أفسر.. كيف يطير الجسد ينتقل من مكان إلى مكان بدون جناحين؟!!.. فيما سمى كنت أطير داخلها.. كانت تنشر ذراعيها تمدهما جناحين لي وأصير أنا الجسد.. نلتحم.. نطير.. ندخل عالم الحلم مخترقين حاجز الزمن.. عندها كنت أشعر أنى أرى و أنى أعلم.. لم أستطع أن أفسر.. لكنني أعلم أنى أرتفع وأطير»..

زادت مساحة البلل فكر في أن يخرج أمعاءه وجهازه التناسلي لينشرهما.. وفعل.. الثالثة.. الرابعة.. الخامسة.. تواصلت رحلة الصعود..

«أصعد.. أصعد.. أصعد.. في المنتصف خرج الضوء الغامر بهرني.. فنسيتها ونسيت نفسي.. حتى عندما كانت تفرد جناحيها ونلتحم لم أعد أشعر أنى أطير.. فقط كنت أشعرها ترتفع فتفتقدني وتعود لي من جديد.. عندها كانت تجن تضمني بشدة.. تصرخ وتدمر كل ما تصل إليه يداها من أعضائي لعلها تستطيع أن تستعيدني، وفقط كنت أشعر أن غيب عيونها لم يعد سوى صورة باهتة.. فكنت أبتعد.»..

أصاب البلل القلب والرئتين وملأ القفص الصدري ماء الملل.. فكر في أن يواصل نشر الأعضاء.. وفعل..

«رأيت ما لم أكن أستطيع أن أراه لولا الصعود.. سجدت في محرابي –آه من آلام الظهر–»

.. ما بعد المنتصف عبره ورقة.. ورقة.. ممتلئُ حتى الصفحة الأخيرة.. كانت الأعضاء المتناثرة على درجات السلم تعوق حركة الزمن في الصعود- آه من صفحته الأخيرة

«.. عندها كنت قد جمعته في إسفنجة وامتصصته» ..

رائحة البلل تزكم الأنف..

«لم يعد صعبا أن أصل إلى الفكرة بغير فكر.. أن أسمعها.. أراها.. ألمسها.. بغير عضو... أن أدير هذا العالم بهذا المفتاح وأن أغلق شمس الله عندما أضع على عيني نظارتي السوداء»..

اخترق الماء الأم الحنون.. قالت..

«أن عينيّ منذ وضعت فوقهما نظارتي السوداء لم تعدا تريا..»

وتحركت نحوى عارية تجذبني.. أشرت إلى أعضائي المتناثرة.. فاختارت أحدها وذهبت به..

فكر في أن يخرج عقله ينشره على درجات هذا السلم لعله يجف – كانت كل درجات هذا السلم منحوتة في تضاريس عقله- وفعل.. أغلق يومياته ألقى بها لأعلى.. كان الشيب يزحف وكان الملل يغرقه.. يغرقه.. يغرقه.. ي...

هل كان يعلم...؟؟!!.

يوسف والحلم

ألقت عليه عباءتها.. كانت تقف في منتصف الغرفة وكان هو على طرفها يحاول الخروج.. جذبته من الطرف وأجلسته إلى جوارها على سرير وحيد دون ملاءة، لم يعترض لكن عينيه كانت ماتزال معلقة بالمستطيل المغلق.. دفعته على السرير.. سقط في بئر عيونها العميقة.. اعتلته فتذكر رؤياه.. «كانت ذئبا يطارده.. ينزع أعضاءه عضوا عضوا.. يفترسه لكنه في لحظة من لحظات الصحو وضع يده على منطقتها الدافئة فتفجرت أنهار العسل.. ألقت في اتجاهه بالقميص فارتفعت حجب الغيب ورأى أضواء نيون العالم تخرج من بقعة محاطة بالسواد فهام بها»..

قالت له أمه... «اكبت رؤياك حتى لا تقتلك الرؤيا..»

الرائحة كانت تجذبه لشيء بعيد.. شيء يذكره بحجر أمه حيث الأمان من الذئاب والرؤيا.. شعر بدفء الجسد الريان واللحم البض وكفه تغوص فيه كلما حاول أن يرفعها.. نزعت عنه قميصه تشبث به حتى قض من دبر..

قالت له أمه.. «إن كان قميصك قد قض من دبر فأنت برئ فاستمسك حتى لا تسقط في البئر وتباع للشهوات».. واحتضنته فتشبث بها..

ألقت بالقميص تاركة له منه مالا يستر عورة وبدأت رحلة البحث بين شعيرات الصدر عن أى أثر تكون قد تركته امرأة أخرى.. كان قد محى آخر بقايا المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تترك آثارها في صدره بعد أن هجرته وحين اطمأن قلبها لسلامة موقفه نزعت قميصها وألقته بعيدا.. «كانت رائحة تبغ أبيه التي تفوح من ثديها تنشر الرعب في نفسه..»..

تمنى لو تصل يده إلى قميص الرؤيا.. دليل البراءة من الدم الكذب..

كانت أمه تقول له.. «احذر أن ترى قبل الأوان فإن رأيت وعرفت فقدت براءتك سقطت في بئر ولن تستطيع أن تعود من جديد».. ورفعت طرف ثوبها..

ازدادت حرارة الغرفة بالكشف.. كانت بيضاء كنهار وليد يلوح في سمائه بقايا ليل.. شعر أن عليه أن يوقف هذا الأمر وإلا.. خاصة أن شيئا ما في داخله كان يتغير.. في حركة مفاجأة دفعها فسقطت بجانبه... لعنته واستدارت.. كان ثدياها بقرتين حلوبتين سمينتين.. سحرته الرؤيا وتذكر أمه ببقرتيها اللتين أعجفهما الزمن و أفواه الصغار.. كم تمنى لو ينال حظه ويكون ملكه مثل هاتين البقرتين السمينتين يمتصهما فتندفع الدماء ساخنة ويلتهب.. هب وأسرع في اتجاه الباب.. مدت يديها وجذبته.. وقع امتطته من جديد.. كان لعيونها نظرات ذئب.. شعر أن كل هذا لن يوقف فعلها... تمنى أن يرى برهان ربه..

قالت له أمه.. «افرغ قلبك مما به، اغسله، ترى برهان ربك في باطنك ضوء أحمر..»...

لكنه كان دائما ما يجدها جالسة بقلبه على هيئتها تلك التي يراها عليها الآن فيستحي أن يفرغه ويشتاق.. ابتل جسده بالعرق فزاد التصاقها به.. جذبها إليه -أمه- هذه المرة وقال.. هيت لك.

السيرة الذاتية لحامد بن إسماعيل

أنا «حامد بن إسماعيل العاقب بن إبراهيم الصادق بن العاصي» ولدت عام الفيل، ربما قبله بقليل، ربما بعده بكثير، لكني بالتأكيد ولدت في عام الفيل.. لا أتذكر الكثير عن طفولتي ولا من طفولتي، لكني ولدت في بيت لا باب له يدخله من يشاء وقتما يشاء.. كان أبي دائما في انتظار الزائرين، لذلك تجده كان في انتظاري حين ولدت.. رحب بي.. مد لي سفرة الطعام وقدم لي ما يقدم للمسافر والضيف.. أمي هي الأخرى كانت مشغولة عني بأمور الأسرة ونظافة وترتيب البيت لذلك لم أجدها كثيرا في طفولتي ولم أجدها مطلقا في كبري.. الأخوات والإخوان حين ولدت لم يكن أيّ منهم بعد قد شاهد وجه الدنيا أو شاهدته، فأنا البكري من فُديت بعشرة من الإبل وخنزير لم ير العرب له شبيه سوى في أساطير قبائل لم يصل إليها بعد أحد.. أكلت من سفرة أبي مع كل غريب وسمعت حكايات السفر والمسافرين.. رضعت الشعر والقصة والرو اية وسيرة بني فلان حتى تشربت روح الأدب وطعمه.. أقتصد فأقول رحل أبي عن وجه الدنيا ذات مساء -لم ألمحه- فخرجت فيه أفتش في خيام العرب الآخرين عن بيت يأوي يتيما.. كان لي خال في قريتي البعيدة، كان قريبا لأمي من بعيد، وربما لم يعرفها قط.. لكنه رحب بي، فتح داره وقلبه وقال

: عش حتى تكره الدنيا أو تكرهك، لن يرغمك شيئ على مغادرة الدار..
صدقت خالي وزرعت في داره شجرة من الأمل، صاحبت أطفاله، رعيت صغيرهم.. صار أقربهم إلى قلبي.. أحببته، كان فيه صفاء السماء ونقاء قلب لم تغدر به بعد حبيبته.. صاحبني في حفلات التأمل.. دنيتي /حلمي.

أرهقني طهره، حتى أني كنت أستند إليه حين أحتاج إلى التطهر.. لاحظ خالي ميلي إلى طفله النقي، وميل طفله النقي إلي.. اطمأن قلبه وسعى في صحر ائه ينمي أمواله.. قلت له

: يا خالي، أريد أن أرى الدنيا وتر اني.

قال : مازلت صغيرا على الهجرة والسفر وغربته.. «كان خالي يخشى بأس الأيام وقسوتها وخيانة أهل المدن البعيدة وغدرهم.. منذ أنبأه فنجان قهوة كان قد شربه مع مسافر أني والطاهر ما بيننا سيف وصليب ينتظرنا في المدن البعيدة إيانا يصل أولا.. لذلك ظن أن زمن الهجرة والسفر لم يأتيا بعد وأن خروجي يقتل الأمل ويضيع طفله البرئ».. فانظر أيامك وتأملها حتى تبلغ الكبر..

في بيت خالي حرمت القصص والأساطير والشعر والاستئناس بالمسافر.. لم يبق لي سوى خيالي الذي يتبعني أينما رحلت فرعيته حتى يكبر و رعيت خالي وبيته كنت أذهب كل صباح إلى الخلاء أجلس فوق الصخرة «سميت في الزمن الأخير صخرة التنبؤ والتأمل والفكر الرصين لكنها الآن مجرد صخرة» وأطلق أغنام أفكاري ترعى في هذا الفضاء الفسيح.. كان ابن خالي يجاورني.. يشاركني لعبتي المفضلة.. يصمت حتى أنطق، يسمع حين أنطق بالكلمات ويرددها.. ويتابع أفكاري ككلاب الصيد ولا يسأم الصمت الثقيل ولا الكلمات الكبيرة.. خالي كان يتعجب من غيابي عن البيت.. «ربما كان يقلقه غياب الصغير» يسألني دائما أين أذهب؟.. أتأمل سؤاله طويلا.. لكني لم أملك في يوم ما إجابة له.: فمن منا يدرك أو يعلم أين يذهب حتى يجيب على سؤال مثل هذا، فأتركه مبتعدا، اعتاد خالي على سلوكي فصار يدعني لحالي ويحاول أن يتواصل مع صغيره، لكنه ما كان يبوح إلا بما قلت له.. يسأله خالي فيصمت ويشير إلى البعيد، خالي يدرك البعيد، لكنه يسأله ماذا تفعلان؟، فيصمت

ويشير إلى قلبه، لم يفهم خالي أن هذا هو الجواب -فالخلاء يريح القلب وينقيه ويطهره ويخرج زرعه الأخضر-.. لذلك يلح، فيتركه الصغير متبعا خطاي..

في ترحالي ما بين بيت خالي وصخرتي.. أراها.. كانت مثل النهار غامضة لا تبوح إلا بالنور والضياء، في البدء تابعت خطواتي بالنظرات، ثم باللفتات، ثم بالكلمات.. ألقت التحية فرجعت لها.. ثم بالتساؤل فكان الجواب.. ثم أشرت إلى بيتها وذهب خالي ذاهلا مذهولا.. و انتقلت إلى بيتها.. عز عليّ فراق الصغير وعز عليه فراقي..

في بيتها تغيرت الأمور.. صرت سيدا لي سلطة الأمر والنهى، أتوسط الدار نهار كل يوم أحسب وأعد ما ربحت تجارتي / تجارتها وأوزع الهبات والمنح وأشير ليوم السفر ويوم الإياب.. كانت مليحة حلوة المعشر والمقام.. نسيت الدنيا ونسيت الصخرة.. وكنت من قبلها قد نسيت الأدب شعرا وقصة وسيرا.. لكني كنت ألمحه صباح كل يوم في ميعاد جولتنا التأملية يأتي إلى باب الدار يجلس في الجهة المقابلة يلاحظني و أنا أُعد النقود.. أُحاسب العمال والتجار.. عينه تقول لي شيئا لم يقله باللسان.. أعرفه.. هو يشتاق للرعي.. لأن يرى مرة أخرى أفكاري ترعى أمامه.. ألاحظه طويلا في جلسته التي أبدا لا يملها.. لا ألتفت إليه كثيرا.. لكن مشهده لا يغيب أبدا عن بالي..

يوما ما قالت لي إني سوف أصبح أبا.. يوما ما انتفخت بطنها.. يوما ما سمعت في الدار ضوضاء وصريخا.. وسعادة بالطفل الجديد.. كانت تشبهه في براءته.. فنظرت له في مشهده الصامت.. وخرجت له.. أخذته من يده وسرنا.. كأن الأيام لم تغيرنا.. كأني أنا أنا.. وهو هو.. وصلنا إلى الصخرة.. كانت السماء غيرها.. والهواء غيره.. لكن الصخرة بقيت صامتة صامدة.. جلست وسألت كيف دارت بنا الأيام حتى تغير كل شيء

وبقت الصخرة و أنت لم تتغيرا؟!!!.. نظر للسؤال وتركه يرعى فيما حول الصخرة.. حتى ارتد إلينا عشرات الأسئلة.. أخذنا الوقت حتى أظلمت علينا الدنيا.. لم ندرك الظلام إلا حين خرج إلينا النور من جديد عندها.. أمسكت يده وعدنا.. كان سعيدا يشع نورا كأنه شمس.. في البيت كانت ترضع الصغيرة.. كانت تحمل براءته ووسامة أمها، وربما كانت عند الكبر تحمل عقلي وقلبي.. «تمنيت».. ألقيت عليها السلام وجلست، أخرجت ثديها من فم الصغيرة.. ألقت بها بين يدي، رفعتها وقبلتها وتمنيت أن تدوم سعادتي.. ألا أحرم الجلسة فوق الصخرة والنوم في حضنها..

اعتادت جولاتي اليومية وغيابي معظم الأوقات عن البيت وعنها.. ابتعدت كثيرا عن تجارتها.. لم تمتعض، فقط كانت تلقي لي بنظرات تشبه تلك التي كثيرا ما كان يقابلني بها خالي البعيد.. تعلمت الصغيرة المشي الهوينا.. لم ألاحظ هذا إلا الآن وهى تأتي إلىَ بخطوات متعثرة.. ابتسمت لها فابتسمت الصغيرة وأشارت لي، كأنها تفهم وتحس بما أتمنى.. ضحكت لها وقبلتها من جديد..

تتكرر الأيام.. الصغيرة تنمو.. والصغيرة تولد من جديد.. وهى أم الأبناء ترعى البيت، لم يعد يقلقها الغياب الطويل.. اختفت حتى عن عينها ومنها نظرات الشك والتساؤل.. و انتهى القلق مادمت في النهاية أعود إلى حضنها مشتاقا.. عادت الحياة للصخرة بعودتي إليها يصحبني هو.. لكنه كان عابثا هذا اليوم.. فاتحه أبوه أنه قد كبر.. و أنه بلغ سن السفر.. أن التجوال حول الصخرة لن يطعمه.. وعليه من اليوم أن يلاحق القو افل.. كان حزينا لأنه سيخرج من الحلم.. مرّرت يدي على رأسه قبلته وقلت له

: يمكن للأفكار أن ترعى في أى مرعى، و أنت تسافر عبر الصحراء ستجد هناك مراع أغنى من صخرتنا هذه.. ستكبر أفكارك وتسمن لا تقلق.. ربما

يأتي زمن ونعود إلى الجلوس هنا تبادلني الفكرة بالفكرة... يومها طال جلوسنا.. طال تأملنا وصمتنا.. حتى انتابنا اليأس من الصمت فتحركنا في اتجاه الدارو افترقنا..

غادر بعدها بأيام مع قافلته الأولى.. افتقدته في الصباح حين فتحت الباب ولم أجده في جلسته أمامه ينتظر.. ذهبت إلى صخرتي وجلست.. كان فكري مشغولا به.. لكني سريعا ما غفوت.. وفي غفوتي هبط طائر من السماء.. أبيض كما شعر عجوز.. لم يكن قريبا حتى ألمسه ولا بعيدا حتى أتحاشا ما أثاره جناحاه من عاصفة ترابية.. هبط ووقف على الأرض أمامي.. مد لي جناحه.. لم أفهم.. اقترب.. وأعاد فرد الجناح.. ماذا تريد؟ لم أفهم.. فبطني بريشه في ذراعي.. فسرت في جسدي رعشة لبرودة غريبة مست حتى النخاع داخل عظامي.. وكأني كنت أنتظر لمسته لأفهم.. مددت يدي لجناحه.. انتزعت ريشة منه.. وبدأت الرسم على رمال الأرض.. لم أكن من قبل قد مارست المهنة.. لكن ما أرسمه كان متقنا.. كان رجل وامرأة.. وكان خلاء.. وكان شيطان مريدا.. وكان طردا من جنة أو إلى الأرض.. وكان أن قتل رجل الرجل وفر هاربا.. وكان أن مرض رجل وحملته امرأة باعت عليه كل ما تملك حتى شعرها.. وكان أن عبر رجل البحر بهم وكان عجلا يتبعه.. وكان أن عُلق الرجل على صليب ولم يمت.. وكان وباء وكان موتا وكان فيلا يهدم بيتا.. وكان أن صحوت من النوم فجأة مع اقترابه.. أخذني خوفي وبردي إليها.. فزعت حين وجدتني على صورتي تلك.. ألقت بآخر الصغار إلى الأرض وضمتني إلى صدرها.. سارت بي حتى أوصلتني إلى السرير.. وهناك أرقدتني.. رمت عليَّ غطاءها وجلست تمسد رأسي وجسدي.. حتى سرت في جسدي حرارة يدها وعواطفها.. أغلقت عيني ونمت.. في نومي زارني.. كان فوق الصخرة يعيد تشكيل الرسومات، يدهنها بألوان من الذهب الصافي أو الفضة

البر اقة وحين انتهى أشار لي أن أكمل.. لم تكن معي الريشة فقد أضعتها عند الصخرة.. صرخ في وجهي وطار مبتعدا.. صحوت فزعا.. كانت ماتزال جالسة بالقرب من رأسي.. قالت إن نومتي طالت.. إني هكذا منذ ثلاثة أيام.. وإنها قلقت إلى درجة الموت حتى أنها استدعت الطبيب فأكد أني سأقوم من رقدتي لا خوف وسأسترد صحتي عما قليل.. لكنه نصحها بأن أبتعد عن الصخرة بعض الأيام.. تحركت من السرير صامتا.. نظرت تجاه الصغيرات الجالسات على الأرض.. وأشرت إليها.. أكبرهن.. وقلت لها

: أفتقده.. ألقت بنفسها في حضني و ابتسمت، فعرفت أنها قد فتحت صفحة الغيب في كتابها وعرفت أنه لها وأنها له..

لم أطق صبرا.. خرجت من فوري إلى الصخرة.. كانت الرمال كما هي.. أين ذهبت الرسومات؟!!.. ماذا تعني؟.. تناومت لعله يهبط من جديد.. تغافلت لعله يستغل الغفلة ويلقي لي بريشة.. لكن الليل سحب حبل النهار ولم يظهر..

في الدار وجدت رسالته الأولى منذ سفره.. حدثني عن عالم بغير رمال.. تربة سوداء وزرع أخضر.. عن نيل وعن أهرامات و أنواع من الكتابات تشبه... لم يجد الوصف فترك المكان فارغا.. لكني فهمت.. رأيت وعرفت.. سعدت كثيرا لرسالته و أبعدت عن رأسي طائري وريشته وأملت في مستقبلي القريب أن أذهب إلى هناك.. حيث الرسالة كاملة.. والوصف الكامل.

أبرهة يطارده الغزال

الفيل فيله.. البيت بيته.. الصحراء ملك لمن يغزو ومن يعبر.. الشمس فقط لم يكن له عليها الحكم، لذلك سلطت عليه أشعتها النارية وهو يعبر هذه الصحراء في رحلته المقدسة.. لن يقطعها كمن سبقه على حمار ولن يقطعها مثل لاحقه على جمل.. فيله تحته.. يدب الخطو على الأرض فتسمع كل خيول القبائل خطوه.. آه لو تحقق الحلم.. لو صار «القليس» كعبة للعرب لانفتحت أمامه خزائن الأرض.. استقدمت كل قبائلهم أصنامهم.. صار إلهه حامي آلهة الغير.. تبدلت المعادلة... وصار الله إلى جانبه.. الصحراء فسيحة.. والشمس لا تعرف صديقا.. لا تعرف ملكا.. لا تعرف الهدف النبيل من رحلته تلك المقدسة لذلك تُفْرغ هذه النيران فوق رأسه لا يمنعها عن الوصول ما وضع فوق رأسه من قماش وجلد.. ولا يمنع حرها الهواء الطائر من مراوح العبيد الذين لا يتخلفون خطوة ولا يتقدمون.. شارد هو، مشغول البال ببيته الجميل.. زينه كما لم تزين امرأة.. لونه كما لم تلون وردة، وكساه كما لم تكتس في يوم كعبة قريش و انتظر مكافأة الدهر.. الحج.. «ولكم منافع فيه».. الأموال المنهمرة.. التجارة.. العبيد والإماء «حور العين» والصبية الصغار «الدر المكنون».. لكن هذا البيت اللعين المكي يسرق أموالي.. أموال بيتي.. انتبه من سرحته حين أشار جنوده إلى غزال شارد ينظره عن بعد.. يشير له إشارات لم يفهم معناها.. يخرج من بين صفوف جيشه عددا من الجنود في اتجاهه.. المطاردة حامية.. هم لا يقتربون أبدا منه.. لكنه أبدا لا يبتعد.. تتسع دائرة المطاردة.. يندفع المزيد من الجند إلى اللعب / المطاردة.. تتسع الدائرة كلما بلعت مزيدا من الجند... المشهد المثير

الغريب يشد نظر الجميع، يتوقف الجيش عن التقدم.. حتى فيلي يدير وجهه للغزال.. كأنه هو الآخر ينتظر الإذن بالمشاركة في المطاردة.. لكن الأمر لا يصدر له.. تسرى حالة من الفوضى في الصفوف.. تضطرب خطوط الجيش.. تتفكك.. الغزال يسرع إلى الصحراء.. يدور في دوائر متسعة يتلوى كثعبان.. يطير كنسر، لكنه لا يغيب أبدا عن نظرهُ ولا يغيبه عن نظره.. يتعجب.. يقترب منه وزيره، مستشاره في أدق أموره وأمور مملكته.

هل ترى ما يحدث يا مولاي؟.. إن هذا غير طبيعي.. إنها رسالة الإله لك.. تحرسك وتؤيدك في خطوك.

.. أبرهة ينتبه لما حدث في جيشه.. لو كانت هذه الرحلة المقدسة غزوة حقيقية... لنال منه العدو الآن.. وأغلبية الجيش قد خرج في مطاردة غزال.. يعود أبرهة أبرهة.. يتوقف العسكر عن المطاردة والقنص.. يعود الجيش إلى الانضباط.. تنتظم الصفوف.. فقط أبرهة يشرد في متابعة الغزال الذي اطمأن الآن إلى انتهاء المطاردة فاقترب من الجيش وسار بخطوه يراقبه..

***

يومه الثاني في الصحراء.. أحلام الليل كوابيس تطارده.. فيه شاهد سماء سوداء.. طيورا لم ير مثلها من قبل.. تأتى من قبل الشرق .. تسير فوق الجيش ساعات الليل والنهار.. تلقى أمامه حبات ذرة.. تنبت الحبات.. ترتفع على المدى الحقول.. يضيع الجيش وأثره داخل الحقول.. كان وفيله في قلب المتاهة.. الذرة في كل مكان.. ألف حقل وألف متر.. ولا طريق.. انتبه حين رأى أن سماءه قد تغير لونها.. المبهج في الأمر.. أن فيله تحته.. لكنه قلّب وجهه لجهة اليمن.. كلما أداره إلى مكة استدار لكن توقف عن المضى في الطريق.. فجأة اختفت الذرة وظهر الجيش

بلا رؤوس.. حتى فيله اختفت رأسه.. فقط رأسه هو كانت ماتزال على كتفه.. لا يذكر هل كان اليمين أم اليسار.. لكن الطيور تنهشه وتنهش جنوده... جرى.. أسرع وأسرع.. استجار بالآلهة.. ذكّرهم ببيته المزين المبهج الجميل.. «آلهة لا تعرف الجميل ولا ترده»..

يومه الثاني في الصحراء.. الغزال طوال الليل لم يبتعد رغم عواء الذئاب الذي لم ينقطع.. حين خرج من خيمته في الصباح أشار له نفس الإشارات.. لم يفهم.. لكنه أصدر أمرا أبرهيا بعدم التعرض للغزال.. القنص ممنوع، نحن منذ الآن في رحلة حج لهدم بيت مكة. للتقرب من باقي الالهة.

يتحرك الجيش.. خطوطه لا اعوجاج فيها ولا نقص.. الصباح الجميل يطرد كوابيس الليل.. يعود أبرهة أبرهة من جديد.. يمر الجيش برعاة إبل وبعير وأغنام و... يتوقف.. يسأل لمن هذه الأموال.. لأى القبائل.. هو لم يأت للغنائم، هذه رحلة مقدسة.. لذلك لا يلتفت كثيرا لما يمكن أن يكون ملكه الآن.. فغدا سوف يرث الأرض ومن عليها.. الشمس تعاود حركتها الغادرة.. تشعل المكان من حوله.. لو اتسع ملكه يوما إلى المغرب حيث مسكنها.. سوف يحاسب الشمس على أيامه هذه، وفعلتها تلك.. سيجعلها عبرة.. سيحبسها في مكمنها أياما و أياما دون ماء، دون طعام.. حتى تعترف به سلطان أو ملكا.. ينتبه على اقتراب الغزال.. اختراقه صفوف الجيش.. تقدمه دون وجل.. المرور أمامه دون انحناء.. والإشارات المجهولة بالنسبة له.. ثم الخروج من جديد.. مبتعدا عن صفوف الجيش.. يقترب الوزير.. يشير ويؤكد من جديد .

الأمر معجز يا مولاي.. رسالة الإله واضحة.. دعمه لا يغيب..

.. أبرهة لا يثق كثيرا في رسائل الآلهة.. لكنه يؤمن أن الغزال يحمل سرا

ما.. رسالة ما حقيقية.. وأن وجوده له هدف.. ربما يكون هذا الوجود مرتبطا بحلم الليل، تفسيره، الإشارات.

****

يومه الثالث في الصحراء .. كالعادة غلبه حلم الليل .. ظهر له ليل مبهج .. فيه اقترب من حلمه .. كانت الكعبة على مرمى نظر .. على بعد حجر .. من هنا كان يمكنه أن يقذفها بالمنجنيق .. لا عائق .. لا جيش .. لا حراسة .. فجأة .. ظهر على البعد سواد قاتم قادم من جهتها .. لم يكن واضحا ما نوعه في بداية الحلم .. لكنه كلما اقترب – ربما – الحلم من نهايته .. ظهر نوعه .. إنها حشرات صغيرة .. لا تزيد عن حبات الملح والعدس.. لها لون الليل الحالك السواد.. تتحرك في سرعة مخيفة.. لتدهن وجه الدنيا.. تدمر الأخضر واليابس في طريقها.. كانت تمر على الجند فلا يبقى إلا العظام.. رعب الدنيا تملكه.. أسرع مبتعدا.. كان فيله يسبقه.. رغم أنه فوقه.. لكن ملح الأرض.. حشراته أحاطت بفيله ابتلعته.. حتى العظام لم تتركها.. فقط ظل أبرهة و اقفا ينتظر المصير، يحيطه السواد الحالك.. فجأة تغير المشهد ظهر وزيره إلى جانبه.. وجهه الذي يعرفه.. فغادره المنام...

اخبره وزيره أن هناك من يريد لماءه.. إنه قائد مكة وزعيمها.. لم يهتم.. سأله عن الغزال هل مازال يتبع الجيش؟..

نعم.

تعجب من أمر هذا الإله الذي يرسل الإشارات عبر الغزلان.. تحرك في خيمته.. ربما معها تفسير حلمه.. ارتدى ملابسه مسرعا.. غادر الخيمة.. نبهه وزيره إلى زعيم مكة المنتظر.. لم يلتفت له.. سار على قدميه متخذا من الغزال قبلته.. تبعه حرسه الخاص.. أشار لهم فتوقفوا.. واصل المسير.. مبتعدا عن الجيش.. حافظ الغزال من جهته على المسافة

الفاصلة بينهما.. تعب من المسير.. فتوقف.. عندها أشار الغزال من جديد.. لم يفهم.. لكنه الآن على يقين من أنه يحمل خبرا ما له.. وأن هناك رسالة يجب أن يتلقاها.. وعليه الصبر، فتابع المسير.. الشمس الآن فوقه بالضبط.. تكاد تلمس شعره.. تحط على رأسه كطائر العقاب.. «أين العبيد؟!».. لا يظهر له جيش.. ولم يعد يلمح الفيل.. هل ابتعد لهذه الدرجة.. ماذا عليه أن يفعل الآن؟.. هل يواصل تتبع خطا الغزال أم يعود ويرتد لرحلته المقدسة.. على أية حال هو الآن بحاجة فقط إلى قليل من الراحة قبل أن يحدد ماذا سيفعل.. على الجانب المظلل لتل من الرمال قليل الارتفاع ألقى بنفسه واختبأ من عيون الشمس وسهامها..

وجه وزيره نخذه كالعادة.. زعيم مكة مازال في الانتظار.. خرج له.. «على وجهه سيماء تقربه إلى القلب.. تحببه إلى النفس».. مد له بساطه.. أجلسه إلى جانبه.. لم يفعلها مع من قابله قبله من زعماء القبائل «ربما يسترضى هذا إله هذا البيت فيقبل أن ينتقل إلى بيتي.. حيث البناء أعلى وأضخم وأجمل و أبهى وأرق وأعظم و أفخم -يمكنني أن أعد حتى تسع وتسعين من الصفات- مما يسكنه الآن».. تباسط معه في الحديث.. ثم دعاه إلى مائدته وقرب له طعامه ليذوق ما يمكن أن يناله ربه لو شاء و انحاز له.. لم يمد عبد المطلب اليد في الطعام.. سأله..

ما الأمر؟!.

قال.. جئت لك في طلب..

رفع أبرهة يده عن الطعام ونظر في اتجاه الغزال.. كان يدور في المكان.. يرسم دائرة تكمل دائرة.. ربما مثلث يقطع مثلثا.. بل ربما خط مستقيم يقطع خطا مستقيما.. لم يفهم.. «لو ينطق» لكنه كان يلح في الإشارة لعله يفهم.. عاد بنظره إلى زعيم مكة..

ما الأمر؟.

جئت أحدثك عن أغنامي و إبلي و..

وبيت ربك؟!!!.

أنا رب لهذه الأغنام والإبل.. أما البيت فله رب سيحميه.

ألن تقاتل؟!!.. ألن تدافع عنه؟!!.. فلما يظل في أرضك؟!!..

أنا رب لهذه الأغنام والإبل.

تعجب أبرهة.. لم يعد بنظره إليه من جديد، فقد خف وزنه في الميزان.. بل رماه في اتجاه الغزال الذي كان يلح على رسم الأشكال.. دائرة تكمل دائرة.. ربما مثلث يقطع مثلثا.. بل ربما خط مستقيم يقطع خطا مستقيما..

رد عليه غنمه و إبله.. ووهبه الزمن الكافي كي يفر هو و أتباعه عن مكان سيغشاه بجيشه ويدمره عما قريب ..

انصرف عبد المطلب .. عاد إلى متابعة الغزال ..

رسمه على الأرض يتواصل.. هب من رقدته خلف التل أسرع إلى حيث تَواصل رسمه.. كان هناك بناء غير مكتمل تنقصه لبنة.. وكانت هناك دائرة تكمل دوائر.. وكان هناك مثلث يقطع مثلثا.. وكان هناك خط مستقيم يقطع خطا مستقيما.. وكان هناك كتاب بالغ القدم، كأنه كتب قبل الخليقة أو هو الخليقة.. فتح صفحاته.. فإذا به..

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ».

.. فرفع نظره إليه والسؤال في رأسه.. ألم تر؟!!!!!!.

حديث عبده الصامت

للصمت دلالات.. و أنا منذ أُمرتُ بالصمت لم أُعط سوى إيماءات لم تُهد.. سُألتُ آلاف الأسئلة.. ملأتُ مئات الأوراق وكانت إجابتي الصمت.. آلاف الأسئلة بلا حل واليوم أقول لكم.. أُمرتُ أن أصمت فصمت وأُمرتُ بالحديث فها أنا ذا أقول..

لست زكريا.. لم تكن آيتي الصوم عن الكلم.. لم أُهب الابن النبي.. ولم أر مريم قط.. لم أكفلها، لكنني حلمت بها يمامة بيضاء مثل نهار لم تحرقه الشمس، ولم يحجبه الغيم على طرف وسادتي حطت.. قالت هبني الكلمة.. لم أفهم.. كررتها ثلاث.. ثم انطلقت.. لم أفهم.. لكنني كنت أُحس كأني قد فقدت شيئا عزيزا إلى قلبي فبكيت.. بكيت نهرا من الكلمات.. لم أر نهاياته.. غصت في قاعه حتى جاءني الحوت ابتلعني.. ألف عام في بطن الحوت.. أُسبح وأدعو.. الحجر، الشجر، الأرض، النهر، الإنسان، كل مفردات الطبيعة دعوت.. و أبكي.. ألف عام لم يُستجب فصمت وما كنت يونس ليغفر لي وألقى على الشاطئ من جديد لكنى في بطن الحوت صنعت جزيرتي/أرضى.. زرعت خضرتي.. خلقت الابن شجرا يطاول حد السماء.. وعشت ألف عام لم أنطق قط.. حتى يأس الحوت فلفظني.. الآن أنا بلا حوت أفتقد عالمي الداخلي.. أرضى\خضرتي.. ابني من يمامتي البيضاء.. كانت تلح أن أنطق باسمها و أناجيها وكنت أعبدها سرا.. ولم أبح.. ولم أنطق.. اتجهت إلى الله، جعلته لي إماما.. للصمت دلالات.. ركعتُ حتى أتت الشمس من المغرب.. سجدتُ حتى تشققت القبور أخرجت ما في جوفها.. لم أُسأل فأنا الصموت.. من أمر بالصمت فما باح.. تسكعتُ في أرض الله آلاف الأعوام أنظر وأسجل..

الأخ يأكل لحم أخيه، يرديه ويبكى على قبره، المظلوم –بأمر القاضي الحافظ لكلام الله- مربوط في سلسلة الظالم وعليه الطاعة حتى يحظى بعطف الله وتحنانه، ويموت العدل، والسلطان يضع في كفة ميزانه الراجحة السيف.. أحصيت عدد القتلى والقتلة.. عدد الخونة والعملاء.. عدد من باع ومن كان على يقين أنه سيباع.. جننت.. رعبا مت هربت إلى هيكلي.. مزقتُ كراساتي ولفظتُ إحصاءاتي واختبأت.. آلاف الأعوام.. مسجون في هيكلي.. نسيني الناس ونسيتهم، أمِنتُ على نفسي.. لولا الأرضة...أخرجتني من عزلتي حين أنهت - في يوم عمل شاق- قرض الهيكل.. فإذا بي وسط العالم والسيف على رأسي سلط كي أنطق.. أفزعهم صمتي حتى كَشَفَ قناع الوجه القرد وأخفى قناع الوجه الإنسان عن وجوههم المشبوحة عادت للذاكرة الإحصاءات.. أُمرت أن أنطق.. بالحق أقول.. «الصمت فرقان».

الضرير والديك

قال الرجل الضرير للرجل الضرير.. «كم الساعة ؟!».. ونظر كل منهما في اتجاه ساعته الخاصة..

قال.. «منتصف الليل»..

حول الآخر وجهه حتى تلتقى الساعتان.

***

الشمس التي كانت تنظر الحدث عدلت من وقتها فبدأت في شد حبل الليل حتى كان منتصف الليل و انتحت جانبا...

***

قال الرجل الضرير للرجل الضرير... «حبل الليل – من أزمان- يمنع خيط الضوء من عبور سم الإبرة.. فكيف نستطيع سماع صياح الديك؟.. كم الوقت؟!!».. فتعلق بحبل الليل يقيسه.

***

الشمس التي كانت تمل الوحدة وظلام الليل وهذا السكون الذي لا يقطعه سوى سؤال ممل عن وقت لا يتحرك أهابت بالديك أن يصيح لتسحب حبل الليل وتنزل...

***

الديك الذي لم يكن يدرك أنه الوحيد الذي يستطيع أن يحرك الزمن كان راقدا في أحضان فراخه يتمنى أن يتوقف الزمن عند لحظته تلك ليظل في هذا السكون والراحة التي يحرم منها في تلك اللحظة التي تلقى فيها الشمس بأولى خيوط الضوء.. لذلك سد أذنه عن تضرع الشمس واستكان في أحضان أقرب فراخه إلى نفسه ونام.

***

قال الرجل الضرير للرجل الضرير.. «أخشى أن يتوقف الديك عن الصياح فلا تنتبه الشمس – التي لا ترى في الظلام - إلى انتهاء حبل الليل و انقطاعه فلا ترسل بخيط النهارونظل أبدا الدهرفي الفراغ ندور.. كم الوقت ؟!»..

الشمس تسمع السؤال تحار.. تحرك حبل الليل تضرب به وجه الديك لعله يستيقظ ويصيح.. الديك – الغارق في حلم اللحظة - يحرك نفسه بعيدا عن حبل الليل الذي أوشك أن ينقطع ويرمى بنفسه في أحضان من يجاوره من فراخه.. الضرير –الحائر- يدور في فراغ الوقت سائلا جاره –المعلق بصره بحبل الليل- عن الساعة التي لم تعد تتحرك إلا من ليل إلى ليل.

العهد المفقود

التكوين

أبدأ رحلة تكويني في بطن الأم ما بين الجلد وبين العظم، يسحقني ضيق المكان.. صعوبة الحركة.. الهدوء الشامل يحيط بي، لا يشوبه إلا صوت سريان الدم الصديق الوحيد.. أهرب بالنوم.. يشتد بي الجوع.. أصحو أرتشف الأكل، أزداد حجما.. ينتفخ البطن لكن وبرغم زيادة حجم البطن يسحقني ضيق المكان.. ظلام يحاصرني.. يتسلل الملل إلى نفسي.. أتثاءب و أنام....

بمرور الوقت أعتاد الوحدة.. أخلق –من ظلماتي أحلاما وردية.. استعذب استرخاؤه النوم...

الخروج

-١

أصحو فزعا.. تتزايد من حولي الحركة.. أعمل على حفظ توازني.. تمسك بي يد.. تجذبني.. أتشبث.. أتضرع للرب..

(أنقذني من عدوى القوى ومن مبغضي لأنهم الأقوى مني)١*

أبذل آخر ما في استطاعتي.. أنزلق إلى الخارج...

«ارفعن أيتها الارتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد»

(من هو هذا ملك المجد؟!!).

-٢

أبكى رعبا.. ضوء غامر يفقدني الرؤية فأصير ضريرا.. أدخل هذا العالم عاجزا.. ألبس أشياء عدة تخنقني.. تتبادلني الأيدي.. (مازال الفزع

يتملكني).. السرير هو المحطة الأخيرة لي.. أحس الاستقرار.. أحن إلى النوم، إلى عالمي الآخر بأحلامه الوردية.. أغفو حتى يقرصني الجوع.. أصحو.. (الظلام)... لكن أين صوت سريان الدم؟!... أسمع خليطا من الأصوات.. (يا حلمي المفزع)... أصرخ.. يجرى دمعي من عيني.. أغرق في بحر المياه الدافئة.. يد ترفعني، تلقمني الثدي.. أشعر بالدفء وأستعيد الهدوء...

فترات طويلة مضت.. تألفت مع عالمي الجديد.. النوم وسط الضوضاء.. البكاء طلبا للطعام والدفء والأمان.. عادت لي من جديد حاسة البصر.. ألمح حركات لا أفهمها.. إشارات تثير لدى الضحك، إشارات تثير لدى الفزع.. صرت أضحك و أفزع...

(مازلت أحلم بالتخلص من الضيق المحيط بي)... حجرة وحيدة.. مناظر تثير الكآبة في النفس.. أربعة على سرير.. فرص الحركة منقرضة... وضع الجسد غير مريح.

-٣

منعت أمي عنى الثدي.. أصرخ.. (أطلب حقى).. لا تسمع لصراخي.. يقتلني الجوع.. آآكل ما تمتد إليه يدى.. أربع أيد في طبق واحد.. تحجز يدى في الطبق.. (أطلب الخلاص)... انفلتت يدى فائزة بالقمة.. يساعدون في إطعامي.. (صاروا يقومون بالنسبة لي بوظيفة الدم، لكنى مازلت أحن إلى وشيشه، إلى دفئه، فملابسي تفتلني بردا وعفونة)...

-٤

كبرت كثيرا.. عُودتُ على التنافس.. اللقمة خلف اللقمة.. صارت ليدى سرعة أياديهم.. صار لي أصدقاء، ألعاب، صرت أعشق أصواتا غير صوت الدم.. تحول الدم في نفسى شيئا بغيضا.. صار لونه لا يثير في نفسى سوى التقزز ورائحته تجعلني أتقيأ...

زاد حجم الجسم.. تزايد الإحساس بالضيق.. أجسامنا تنمو فماذا لا تنمو أشياؤنا بنفس قانون النماء؟؟...

-٥

مدرستي مثل حجرتي،.. لا أفهم شيئا. ضاق رأسي بما فيه.. ضقت بالمدرسة، بالفصل، بالدكة... صفوف.. صفوف.. صفوف.. (كم أتعاطف معك يا سمك السردين)...

انتقالاتي علب أخرى للسردين.. أنمو... نفس الحجرة.. آه.. «لو أن أشياءنا تنمو ونحن نبقى على حالنا لتغير وجه الدنيا...»

-٦

أدخل الآن طورا جديدا... (سقطة جديدة).. قل عدد النائمين على السرير.. صرنا اثنين.. أحس أن سريرنا بحر.. لولا ضيق الحجرة وضيق ذات اليد...

الأيام تمر من ضيق إلى ضيق.. عمل... مواصلات.... حجرات... حجرات.. حجرات...

-٧

اليوم زاد عدد النائمين على السرير.. يبكى كثيرا.. (ربما يحن إلى صوت الدم).. غدا سوف تكرهه.. أريد الحركة.. أعجز.. هل أعجزته هو الآخر الحركة؟... (أحلم بالفراغ).. لما يبكى هكذا.. ألا يكفى ما سبب لنا من ضيق.. لا أعرف هل كنت أريده؟... لا أدرى...

(ترى هل ثار في قلب أبي يوم مولدي مثل ذلك التساؤل).

-٨

روتين حياتي يعود إلى الانتظام، صرت لا أمل بكاء الوليد.. صار لي الفرحة الوحيدة والسعادة الوحيدة في هذه الدنيا الكئيبة.. ينمو.. يزداد الضيق.. يمر بكل مراحلي السابقة..

(هل يشعر بمثل ما كنت أشعر به؟)...

-٩

مازال العمر يمر ومن على السرير يتزايدون والحجرة – لعنة الله على الحجرة– على حالها.. صار الأمل الباقي أن يتغمدنا الله برحمته.. أن يعطينا في الآخرة ما لم نناله في الدنيا.. أن يسكننا قصرا من قصور جنته.. ولما لا؟...

(قال لي إمام مسجدنا حين أثرت أمامه المشكلة..

- إن الجنة سوف يرثها الفقراء.. لن يدخلها غنى.. إن الجنة ليست حجرات بل قصورا، مهما قل عمل الفقير سيأخذ قصرا....)

سعدت كثيرا.. أليست الحجرة والوظيفة والمواصلات.. دليلا على فقرى.. يومها نمت كما لم أنم من قبل، عادت إليّ من جديد أحلامي الوردية تلك التي كانت قد انمحت من ذاكرتي... جُستُ جنبات القصر.. عاشرت نسائي الحور.. وضحكت... ضحكت حتى ألقى بي السرير على وجهى فوق أرضية الحجرة... فنزفت دما..

-١٠

لم أبرح الأربعين لكنى أحس أنى في أواخر عمري أواجه الحياة من حجرتي الضيقة وحدى رغم امتلاء السرير...

الخروج ٢

-١

على سريري نائم.. غير قادر على الحركة.

قال الطبيب: إن زيادة أعباء الحياة تؤدى إلى زيادة ضغط الدم، وإن زيادة ضغط الدم أدت به إلى حالته الراهنة.

قال الزوار: شاب في ريعان الشباب لم يتعد الخامسة والأربعين من

عمره لكنه يكتم في داخله ولا يبوح ...

قلت لنفسى: ليتني قادر على الحركة لأتقلب.. فلا أحد ينام اليوم إلى جواري.. فلى السرير ولهم اليوم البلاط..

تزداد حالتي سوءا.

قال الطبيب: إن ضغطه لم يهبط بعد، و إنه رغم كل ما أعطى من دواء مازال الضغط يرتفع.. وتساءل عمّ تسبب في ارتفاع ضغط دمي؟ .. وامتعض وأمر بزيادة جرعة الدواء.

قال الزوار: إنه بلاء من الله.. فالله يختبر عبده المؤمن ليعرف مدى إيمانه.. وقصوا على سمعي قصة أيوب..

قلت لنفسى.. « لماذا لا يختبر الله سوى عباده المؤمنين؟!!!.. ألا تعتبر حياتنا في كل هذا الضيق اختبارا كافيا؟.. ألا يعتبر بطن الأم والسرير والحجرة والمدرسة والمواصلات والوظيفة اختبارات؟!!!.... فلماذا يزداد اختبار الله لنا!؟.....»

لكنى أصبر... (طمعا في القصر).

فقدت اليوم حاسة النطق..

قال الطبيب: إن وجود المريض في بيئة غير صحية لا يساعد على شفائه ونصح بنقلي إلى مستشفى...

قال الزوار: إن مستشفيات هذه الأيام لا تصلح لعلاج الإنسان، وإن الإهمال هو العادة السائدة فيها، ثم قص أحدهم قصة الطبيب الذي نسى المقص في بطن المريض والآخر الذي نسى الفوطة وتوالت الحكايات، لكنهم نصحوا في نهاية الأمر بتنفيذ مشورة الأطباء.

قلت لنفسى.. «إذا كان الأطباء ينسون أدوات الجراحة في بطون المرضى ألا يجوز أن ينسوا في يوم ما المرضى فيموتوا؟!...».

واليوم فقدت حاسة السمع..

قال الطبيب: إن الإهمال عند الشعب قد بلغ منتهاه، فالرجل على وشك أن يموت وأهله لا يهتمون.. إن تأخير نقل المريض إلى المستشفى سيؤدى إلى عو اقب وخيمة ونصح بنقلي فورا..

قال الزوار للطبيب: إنه لا يوجد سرير خال و إننا لم نتو انى في البحث و إنه إن كان عنده ما يفيد من هذه الناحية سيكون ذلك محل شكرله.

امتعض الطبيب وأمر بتكرار الدواء ومنع الزيارة...

قلت لنفسى.. «فيم يتحدثون؟!.. لم أعد أسمع شيئا.. حركات شفاههم تنبأني.. الآن أوشك أن أرجع إلى رحم الأم... ما أبهى أحلامي الوردية...»

-٢

غُسلت... لا أعرف سرا لهذا.. لكن ربما لأنني سأصبح من سكان القصور، ذلك هو التفسير الوحيد، وعلى أيه حال.. فأنا لن أسمح لنفسى بأن أدخل قصرى على نسائي الحور و أنا لست نظيفا، أوضع في صندوق ضيق جدا، تعجزني الحركة.. (نسيت أنى ميت).. أرفع على الأعناق... (لو يخرج الآن صوتي لهتفت، ليحيا سكان قصور الجنة ولشكرت الله ولعنت علب السردين).. أُدخَل في قبري (الضيق)... منظر كئيب.. لكن ليس يهم فقد سمعت الأمام يقول..

- إنه بمجرد أن يغلق باب القبر سوف يتسع القبر (الضيق) ويناروبحاسب الميت حساب الصبر...»فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه...»

أثق أنى من أصحاب الموازين الثقيلة.. ولم لا.. ألم يختبرني الله.. ألست كأيوب أصابني الفقر والمرض فلم لا تثقل موازيني؟!...

ها هو الباب يغلق.. القبر ضيق ومعتم.. ها هي الأصوات تأخذ في الخفوت مبتعدة.. القبر ضيق ومعتم... صمت عميق يحتويني... أحس أنى قد عدت من جديد لرحم الأم.. لكن أين صوت الدم؟!... أين الملكان؟!!!!....

هل تفهم.. ؟!!

لم يكن موجودا في يوم من الأيام.. لكن أباه في شهادة الميلاد دمغه بالاسم والنوع، وفي بطاقته العائلية دمغه بالترتيب العائلي وقال له..
«أنت كنت ولم تكن من قبل... هل تفهم؟»...
لم يفهم
«ماذا تقصد يا أبتي؟!»...
«فقط تذكر أنك بأمر الأب كنت..»...

***

«بي كنت فاعرف قدري.. جلني.. واعمل من أجلي... اطعمني من كدك وعرقك...» .. هكذا قال له الأب
فأخذ الفأس وذهب إلى الأرض البور، وضربها بالفأس.. فانتفضت فزعا...
«من هذا الذي يشق باطني بفأسه؟!..» .. قالت
«أنا..» ... قال
«ماذا تريد؟...» ... قالت
«لا أريد لك شرا، لكني سألقي في داخلك بذرتي التي لملمتها من الأيام، فتنبت وتصيري خضراء، زينة للناظرين وطعاما للجوعى»... قال
«منذ زمان طويل لم يأت من يفعل هذا.. آخر من فعلها قُتل.. أخذني قاتله.. أكل من داخلي الكثير، ثم تركني حتى صرت إلى حالتي تلك..» قالت
«أبي لن يقتلني..» .. قال
«فإني أشتاق إلى بذرتك إذن، فألقها..».. قالت

و انفتحت بضربات الفأس قنواتها..
«يا أبتي.. ألقيت اليوم بذرتي في الأرض، وسقيتها ماء الحياة».
«فقط تذكر أنك بأمري كنت».

***

على السرير جلس الأب، فتقدم منه حاملا بشائر الأرض، ثمارا نضرة...
«كل يا أبتي.. أمرتني أن أطعمك وها أنا ذا أطيع، فارض عني».. قال الابن.
«نلت بركتي يوم وضعت بذرتك في أرضي البور فخلقت فيها الحياة تلك التي وهبتها لك...».. قال الأب.
والتهم كل ثمار الأرض.
«يا بني أريد المزيد، أمامك الأرض واسعة، فاسع في مناكبها، و انفخ في قلب البور الحياة واطعمني تطعني..» .. قال الأب.
فأخذ الفأس وذهب يوسع من مساحة خضرته حتى شبع الأب، وفاض خير الأرض..
«الثمار على الأشجار لا تجد من يأكلها، فهل أتوقف؟..»... قال الابن.
«لتبن خز انا يخزن فيه ما زاد من ثمار الأرض ينفعنا في وقت الشدة» .. قال الأب.
«وكيف البناء و أنا أعمل في الأرض طوال النهار؟!..»... قال الابن.
«ليكن النهار للزرع، والليل للبناء»... قال الأب.
«لكني متعب يا أبتي..».
«تذكر أني خلقتك..... وتعبت، لكن لم أتوقف قط حتى أتممت الخلق، وصبرت..».. قال الأب.
«لكني أسمع أنك في يوم ما قد ملكك التعب فاسترحت».
«تذكر أنك بأمري كنت، فاطعني..».

***

أخذ من الأرض الطين، ومن النهر الماء.. صب من ماء النهر على طين الأرض وبدأ البناء...

«يا أبتي... اليوم رفعت الجدران تصد الريح وجاء ميعاد الأرض».

«واليوم ألقيت السقف يحجب ضوء الشمس».

«واليوم أتممت البناء فانظر يا أبتي وتعجب»... قال الابن.

«خلقت فأحسنت الخلق، املأه من ثمار الأرض واغلقه»... قال الأب.

«يا أبتي، ملئ الخزان ومازالت ثمار الأرض على الأشجار لا تجد من يأكلها»... قال الابن.

«ليكن خزانا آخر وآخر وآخر.. حتى تُسْتَوعَب كل ثمار الأرض».. قال الأب.

«يا أبتي قَتَل القمر السهر ويريد النوم»... قال الابن.

«سيأتي وقت النوم فلتصبر وتذكر أني حين خلقتك....... وتعبت لم أتوقف حتى أتممت الخلق... فاصبر واطعني...».

***

«يا أبتي كل خزان الأرض ملئت بالثمار، ومازالت الأرض تعطي وتعطي...».. قال الابن.

«دع الأرض، أهملها حتى يتوقف عطاؤها ولتكن الخزان محل عمل لك».. قال الأب.

«ثمار الخزان تتزايد وثمار الأرض تسد الطرقات».. قال الابن وخيوط القلق ترتسم على وجهه.

«اعمل».... قال الأب وداخلته غيوم الغيب.

«ثمار الخزان تتزايد والأرض مازالت تعطي... اليوم سُدّت أبواب الخزان».. قال الابن.

وخيوط القلق تحجب عن عينيه الرؤيا.

«اعمل»... قال الأب.

وتحرك تاركا كرسيه يفكر علّه يمحو غيوم الغيب...

«يا أبتي الثمار تمنعني الخروج.. سُدّ الباب علينا»... قال الابن.

«يا بني.. أنا أوجدتك و أنت أوجدت الثمار... هذا من عملك فتوقف..» .. قال الأب.

«خُلقت لأعمل.. أمرتني فأطعتك.. فكيف التوقف؟!... فوق قدرتي ما تطلب».. قال الابن.

«في قدرتي ما أطلب... هذا خنجري أوجدته لهذا اليوم».. قال الأب. وهو يدفع بخنجره في الصدر المفتوح.

«خلقتك....، وعدم تعود من جديد»....

من هول الصدمة تراجعت الثمار عن الباب فزعا..

ضحك الأب و انشرح صدره، ومد يده يأكل من ثمار الطريق...

واليوم انسحبت الثمار من الطرقات وصار براح...

ضحك الأب و انشرح صدره، ومد يده يأكل من خزان الأرض حتى فرغت، عندها سقط السقف وانهدمت الجدران... ضحك الأب ورفع رأسه.. فرأى الرقعة الصفراء تبتلع الرقعة الخضراء تفنيها، والبور يسود، كانت الأرض تبكي وتموت، عندها أحس الأب بالجوع، فنظر في خارطة الأيام...

«آن أوان الابن».... قال.. وفي شهادة الميلاد دمغه بالاسم، والنوع، وفي بطاقته العائلية دمغه بالترتيب العائلي.. وقال له.. «أنت كنت ولم تكن من قبل...»

هل تفهم؟!!

جرافيتي

حين شعرت أن النهاية على الأبواب، قررت أن أترك للتاريخ بعض تفاصيل حياتي.. حتى لا تضيع كما ضاع الكثير من أحداث زماننا الهامة. ولدت في بيت عادي لم يكن به إلا نافذة واحدة تطل على شارع ضيق جدا بالكاد كنت أستطيع - حين كبرت- أن أعبره بالنظر لأسقطه على صدر بنت الجيران - طائرا جارحا- والتي أبدا لم ترني رغم قرب المسافة وحرارة النظرات.

كانت مدرستي الأولى قريبة من بيتنا، في يومي الدراسي الأول تعرفت على صديقي الأول، كنا نشترك في خصال كثيرة، المريلة التي بالكاد تخفي الجسد، الحذاء الذي تعبره الأصابع بلا خجل، والدموع التي ترفض ترك حضن الأم، جاءت جلستي بجانبه كأن القدر كان يعدنا لذلك الأمر الهام الذي حدث، لكني في حينها لم أنتبه، رغم ذكائي المتقد وعبقريتي التي تفجرت منذ اليوم الأسود الذي انفصلت فيه عن حبل أمي السري، وجدت على وجهه نفس الدموع فشاركته بأن جعلت صوتي مصاحبا لدموعه، و انتصرنا معا على المدرسة - أو هكذا اعتقدنا- فذهبنا إلى البيت عند انتهاء اليوم الدراسي.

لا تحمل الذاكرة حوادث كثيرة في تلك المرحلة.. فقط.. صفعة على الوجه من مدرس كرد فعل على إجابة خاطئة، عصا أو اثنتان وربما ثلاثة من مدرس لتأخري عن بداية اليوم الدراسي، «تزنيب» من ناظر لأنى لم أسدد المصروفات، ولم أحصل في الوقت المناسب على شهادة الفقر، وضحكات مصحوبة بسخرية مُرة من الأصدقاء لأني تبولت على نفسي في حصة الدين، حين عجزت عن تسميع آيات من الذكر الحكيم،

تفنن يومها مدرس الدين في إظهار عذاب رب العالمين.. ولعنات كانت تتخبط في حوائط الفصل لتعود – دائما- تصطدم بوجهي حتى أنني حين غادرت المرحلة الابتدائية كانت قد غطت براءة الطفولة المرسومة على وجهي بعض الغرز والندوب التي لم تفارقه وروحي حتى متّ.. ويبقى فقط، أني في هذه المرحلة لمحتها صورة للبراءة فأحببتها، وحكيت عنها في ليلي، وصرت أغضب من نفسي ولنفسي كلما وجدتها وهي التي تشاغلني طوال الليل في نومي تلاعب الآخرين وتهملني طوال النهار في يقظتي، وفقط.. انسحبت من خيالي فجأة وحل مكانها فراغ كبير.. قد تستغرب حين تعرف أني حتى الآن أضحك من نفسي و أندم و أتمنى أن يتحقق المستحيل ونتعارف من جديد.

اليوم الذي وقعت فيه الواقعة

لبعض الأيام رائحة خاصة.. يومي كان من هذه الأيام.. لم أحبه ولم أحب رائحته.. حين فتحت عيني كانت الشمس تغازلني عبر النافذة الضيقة.. أنا أرفض هذا النوع من الغزل لذلك أغلقت النافذة في وجهها وحاولت أن أستعيد النوم.. لكنه يبدو كمن هرب من نافذتي المفتوحة.. لذلك لم أجد بدا من أن أبدأ يومي.. «لبعض الأيام رائحة خاصة».. لكني في حينها لم أربط بين هذه الرائحة وما سوف يحدث... فقط بعدها بسنوات و أنا أجالس الوحدة والخوف والظلام المحيط تذكرت هذا اليوم وهذه الرائحة فأسفت لأني لم أكن أملك قدرة رؤية كتاب الغيب وصفحاته، ذلك الكتاب الذي ردد دائما اسمه مدرس الدين حين كان يمارس لعبته المفضلة في قرآته علينا.. لنعلم أى مصير أسود سيكون لنا في مستقبلنا البعيد.. فقط خرجت من البيت كما اعتدت أن أفعل آلاف المرات.. سرت في طريقي الذي أحفظه ويحفظني.. مررت بكل من كنت أمر بهم

وبه من قبل.. الجديد فقط في هذه المرة هو أن الشوارع كانت مزدحمة بالسكينة.. هدوء لم أره ولم أعتده في الشوارع.. لكني من كثرة ما قابلت في حياتي لم أتعجب وسرت.. فجأة انتبهت على ضجيج وأصوات صاخبة قادمة من بعيد.. «ربما هو ضجيج الشارع المعتاد واشتباكاته المعتادة تعود إليه».. قلت لنفسي وسرت.. حتى وصلت إليهم أو وصلوا إليّ.. لم أحبهم يوما، ولم يطمئن قلبي لخطواتهم يوما.. لذلك كنت دائما ما أترك لهم منتصف الطريق وأكتفي بالاحتماء بالحائط والتسلل هربا عبر شقوقه.. لكني في يومي هذا لم أجد منفذا أو حائطا فتوقفت والتفت خلفي.. كانت الشوارع ماتزال فارغة.. هل أعود من حيث جئت؟.. هل أكتفي بهذا القدر من يومي وأغادره في انتظار غد آخر ويوم جديد؟.. لم يمهلني القدر.. فقد لمحت الجانب الآخر وهو يمتلئ فجأة.. كأنهم هبطوا من السماء.. لم يكونوا ملائكة بثياب بيضاء وأجنحة، ولم يكن لهم سلوك وتصرفات الشياطين وعبثهم.. لكنهم تواجهوا.. كنت أنا الأقرب فحاولت الفرار مما توقعت حدوثه.. لكن المنفذ كان مغلقا والقدر يعد للأمر عدته.. «لا مهرب لك اليوم».. «لا مهرب لكم».. وبدأ الاشتباك.

يوم من تاريخ موازٍ

تذكر أنه لم يكن له أب ليعرفه.. أنه تربى في حضن أم لا تجد طعامهما بسهولة.. تذكر أنه حقق معه وهو بعد طفل.. وأنها أشارت إليه.. فلم يجد بُدا وهو بعد الرضيع من أن يقول لهم:

لم أفعل، ولكني أحمل الأسف في داخلي شعلة أبدا لا تنطفئ..

ضُرب وسُحل وعُلق على صليب الأيام حتى نزف كرامته وكرامتها.. شرفه وشرفها.. لكنه في النهاية أوصلها إلى قبرها وصعد إلى سمائه حيث كان يظن الأمان.

الواقعة

كانت الفوضى.. كأنه يوم القيامة والكل يبحث عن النجاة.. «لا منفذ لك».. «لا منفذ لكم».. تصاف الفريقان.. أنا المحايد بينهما.. تمنيت فقط أن أغادر هذا الموقف سالما مسالما.. الحجر الأول فقط هو ما لمحته.. قنبلة الدخان الأولى فقط هي ما رأيتها.. قادتني خطواتي العمياء إلى التخبط والوقوع أكثر من مرة.. وال...

وصف سابق للحادث

«ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط في الحفرة، والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ، لأن ميازيب من العلاء انفتحت، وأسس الأرض تزلزلت، انسحقت الأرض انسحاقا، تشققت الأرض تشققا، تزعزعت الأرض تزعزعا، ترنحت الأرض ترنحا كالسكران، وتدلدلت كالعرزال، وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم»

عودة للواقعة

هناك عاودني الحلم القديم، هي بفستانها الأبيض الذي دائما ما حلمت بها داخله، ضحكتها التي تفيض كالنهار فتدهن الدنيا وتبقيها ناصعة، خطواتها التي تدغدغ وجه الأرض فتنشر البهجة في أرجائها.. أراها تمد لي اليد، تشدني، تدفعني بعيدا عن الغمام الزاحف، كانت قدرتي على تحريك الجسد معدومة، رفعتني على يديها وسارت، كانت رائحتها تملأ أنفي وتطرد روائح الغازات والدخان.. أسندت رأسي على صدرها وانتشيت.

يوم موازٍ

ارتطم وجهه بشيء ما.. كان هو يبكي.. تذكره وهو يقطع طريق الآلام مسحوقا بالوحدة.. ليس الألم هو الوصف الصحيح، فليس هذا ألما، وليس هذا هو العذاب.. خُلعت ملابسه، مُزقت أمامه، ضربات السياط حولت الجلد لقطع من القماش مُزق أمامه، اللحم المفروم - كأن سياراتهم مرت عليه - سكاكينهم أخذت منه ما يكفي كي يكون طعاما لكلابهم، الصليب على كتفه أثقل من ذنوبه، السباب يتناثر كذباب حول طبق أصبح خاليا من الطعام، ليس الاسم مواكبا للوصف.. «كنت أتمنى أن ينتهي الطريق، لكني أعلم أن في نهايته سيبدأ على الصليب عذابي الحقيقي وموتي الذي لا يأتي أبدا».

عودة للواقعة

رغم أني لم استطع أن أرفع الوجه لأعلى إلا أني لمحت القادم إليّ – عسكري هزيل مزقته الأيام كما مزقتني من قبل- يرفع عصاته ويهبط بها باتجاهي، لا أعرف لماذا استعدت صورته الآن بهذه المريلة التي بالكاد تخفي الجسد، الحذاء الذي تعبره الأصابع بلا خجل.. استعدت فجأة قدرتي على الحركة.. فأبعدت الرأس عن العصا.. لكنها اصطدمت بالذراع فشعرت كأن سكينا قد قطعته، فصلته عن الجسد، وترنحت تحت تأثير الضربة، فاصطدمت من جديد بالأرض، هذه المرة لم أروجه من ضربني من جديد.. ولم أحاول أن أرفع الرأس.. فقد غلبني ضعفي واستسلمت للضربات.. فقط شعرت أني أقف من جديد أمام مدرس الدين، و أني من جديد أستعيد سنوات تمنيت أن لا أعيشها وأن تنتهي..

يوم موازٍ

بدأت المسامير في اختراق الجلد واللحم والعظام، وصلت حتى سُمع دقاتها في الخشب، فقدت يده القدرة على الحركة، لم يعد الصليب سوى جزء لا ينفصل من الجسد المعلق.. الألم لا يمكن أن يكون هو الوصف الصحيح لما يشعر به.. إن جهنم تخرج من كفّتى يديه، من قدميه.. الشوك المرشوق في الرأس يصرخ بصوت عالٍ، يرمي طبلة الأذن بآلاف من الحجارة تنتقل كلها إلى عقله كلمات..

عودة للو اقعة

حين استعدت وعيي من جديد كنت ملقى فوق القمامة.. وجهي مغطى بالدم، لم أعرف هل هو من إصابة فيّ، أم من الجثث التي تثقل على بدني وأشعر بدفئها عليه، حاولت أن أحرك جسدي ونجحت لكني في محاولتي أسقطت العديد من الجثامين الساكنة فوقي... استطعت أن أنقلب على وجهي فلمحت نصف سماء فقط وبعض الوجوه البعيدة تختفي خلفها تنظر لي وتشير أن أستعد للصعود.. هززت الرأس، فتساقطت الوجوه واستعدت جزءا جديدا من الوعى مصحوبا بجزء جديد من القدرة على الحركة وجزء محدود من الألم.. حاولت الجلوس لكني فشلت.. هذه المرة تفجر الألم من جسدي.. شعرت بالعظام تغوص في لحمي.. فتوقفت عن المحاولة تماما، وعدت من جديد إلى غيبوبتي.

يوم موازٍ

نَظر إلى من يجاوره على الصليب.. لصان جريمتهما قادتهما إلى هذا المصير، أما هو فقد كان ما كتب عليه هو ما قاده إلى صليبه.. لذلك حين أشار أحدهما باتجاهه وطالبه بالفعل.. صمت.. «هو في الأعلى يَرى

ويَسمع ويُقدر ويَعرف متى يكون الفعل.. أما أنا فمجرد حجر أُلقى به على الأرض ولا يستطيع الارتفاع إلا باختلال القانون».. صَرخ فيه.. «أنْ افعل..» لكنه للحظة ظن أنه مثله مُعلقا هو الآخر على صليب كتابه المحفوظ، و أنه لا مهرب لهُ .. لا مهرب لي.. فاستسلم للقدر وصرخ فأتى ليل أشد سوادا من ليل صاحبه الملقى فوق الغمامة.

عودة إلى الو اقعة

حين فتحت عيني هذه المرة لم أر.. كان الهدوء من حولي يسود.. الهواء له رائحة مختلفة، وطعم مختلف.. حاولت تحريك يدي.. فشلت.. شعرت أني معلق على صليب.. أخرجت صوتي صارخا.. انتبه منْ حولي للصوت المبحوح.. مد يده – شخص ما – إلى يدي... مسدها بهدوء.. و اقترب من أذني التي مازالت مغلقة بالحجارة.. «حمد الله على سلامتك»..

الثمرة المُحيرة

حين فتح عينيه وجدها بجانبه، أخذته الدهشة.. في البدء اعتقد أنها ثمرة وقعت من أعلى الشجرة التي ينام تحتها، لكنه حين تأمل تفاصيلها، وقارن بينها وبين ثمار الشجرة المتعددة الأشكال والألوان، لاحظ أنها تتكون من استدارات مختلفة وامتدادات مختلفة وأن عدد الثقوب بها تزيد عن عدد ثقوب أى ثمرة ذاقها قبلا أو شاهدها من قبل.. تحرك بهدوء مبتعدا ووقف يتأملها.. الهدهد الذي يقف أعلى الشجرة التي كانا ينامان تحتها والذي شاهد عملية الخلق كاملة، لاحظ دهشته، فخاطبه بلغة الطير –التي كان هو يفهمها جيدا– أشار إلى صدره ولفت نظره إلى آثر الجرح الحديث الذي ظهر فوق القلب مباشرة.. نقطة دم واحدة.. وغرزة واحدة.. وفراغ كبير في الصدر حيث الضلع الناقص.. عاد إلى مكانه تحت الشجرة بجانبها وسأل نفسه.. «هل تؤكل؟!!».. «ماذا يُفعل بها؟!!».. لم يكن الصانع الذي حاول أن يحل لنفسه وله مشكلة الوحدة والملل الذي يغزو جنته قد حدد وظيفتها بعد.. ولا رسم المستقبل في كتاب الأيام بعد.. لذلك خُلِقت الحيرة –معها- فأرا صغيرا، أسرع واختبأ تحت أوراق الشجرة الوارفة وظل هناك دائما يظهر كلما التقى بها، أو اختلى بها أو وردت على باله حلم أو شهوة.

فقط.. أمل

لن تصدقني يا سيدي حين أقول لك إن هذه ليست جلستي الأولى على شط هذا النهر، وإن ليلى ليست أول امرأة قد خانت قيسا، هو دائما ما ينتج النسخة الخطأ من الكتاب غير المقصود.. لذلك تصادفه عادة- حكايات ليس له مكان فيها، إنه دائما ما يكون الرقم ما بعد الليلة الأولى في الألف الثانية، الليلة ما بعد الأخيرة، ذلك فقط هو ما جعله يهرب بجلده من كل كتب الحواديت، يتشظى في كل الحكايات ويختفي خلف ستار الحكي، أنا الآن أنظر إلى ماء النهر الجاري وأحسب عدد المرات التي أحصيت فيها أمواجه وأخذتني دواماته في جلساتي تلك...

صدقني يا سيدي ليست هذه هي مرتي الأولى هنا، وليست ليلى هي المرأة الأولى، ولكن قيسا كان يأمل أن تكون هذه المرة صفحته الأخيرة.. فقط كان يأمل..

تم بحمد الله

فهرس

هذا
ما حدث بالفعل

مجموعة قصصية

ماهر طلبة

يا عائشة. تعالي لأحكي لك حلمي.

كنتُ أنا وهي في الصحراء، للرمل صوت غير صوت المدينة، وللهواء هناك طعم الجفاف. كنت على فرسي أغزل من رمل الصحراء طريقا، وأروي الهواء بنغمات صوتي، وكانت هي تفترش الأرض في زيها البدوي الجميل، تخفي جسدها عن رمال الصحراء الراغبة في التسلل لجسدها البض عبر الثياب، وعن شمس الصحراء المتلصصة من خلف السحاب الغائب.

أشارتْ وتَوقَفتْ. تعجبتُ وسألْت. قالت: أنها غفت. أن القافلة تحركت بدونها. أنه الشيطان.

"كيف لشيطان أن ينتصر على ملاك ؟!".

ما كان لي أن أتركها خلفي، فحملتها أمامي وتهادى بنا الفرس كأنه يرقص على عزف القلوب.

.دخلت المدينة لا أطلب ليلا و لا أخشى عيونا. اوصلتها دارها. داري، وسألت في الحي عنها.

قيل هي أنت. فأتيت إليكِ يا عائشة لأحكي لك حلمي.

تعالي



هذا ما حدث بالفعل

مجموعة قصصية

ماهر طلبة

دار لوتس للنشر الحر